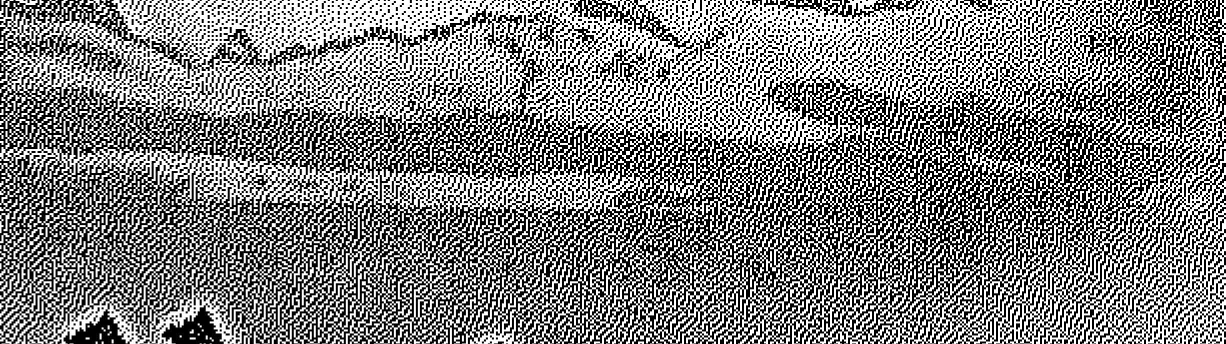

سيد القمنى




قصة الخلق

قصة الخلق

أو

منابع سفر التكوين

الكتاب : قصة الخلق ... أو
منابع سفر التكوين

الناشر : المركز المصري لبحوث الحضارة.
(تحت التأسيس)

العنوان : ٣٢ شارع الهرم شقة ٢٤.

المدير العام: سيد القمني

رقم الإيداع:١٦٩٠١

الترقيم الدولي: 977-5931-05-3 (I.S.B. N).

الغلاف : محمود سيد القمني.

المراجعة : أحمد أمين.

الصف : بالمركز المصري لبحوث الحضارة.

الطبعة الثانية : ١٩٩٩.

الغلاف والصف والإخراج الفني: المركز المصري لبحوث الحضارة.

الإهداء

لذكرى أبى

مفتتح

سفر التكوين هو قصة البداية

أو هو سفر الحكاية الأولى ..

أو هو رواية المجتمع الإنسانى مذ كان تجمعاً، فى البدء وكيف كان؟ إلى أن بلغت الرواية اكتمال نضجها مع قمة تطور السلطة في المجتمع الإنساني،وعندما يحدث التطور الجديد الآتي، فلن يكون ثمة حاجة للرواية، التي رفعت من زمن بعيد لعالم مفارق، كمـ[illegible] الأرضى.

فعندما كان المجتمع في الابتداء مشاعاً، كانت أرباب السماء في متعة الشيوع تمرح ، وعندما تحول المجتمع الأرضي إلى مشتركات ترأسها مجامع ديمقراطية بدائية، أصبح للآلهة ذات المجامع ، لكن لتقرر للبشر على الأرض المصائر، وعندما تم تقسيم العمل على الأرض ، تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة ، وآلهة للتفكير والتدبير.

وعندما تمكن الإنسان من الابتكار وصنع جديد، لم يكن من قبل كائناً، تمكنت آلهة السماء من الخلق والتكوين ، وعندما تمركزت السلط

على الأرض في يد ملك علي رأس دولة مركزية، وأصبحت كلمة الملـك نافذة لا تقبل الإرجاء، قيل إنه في البدء كانت الكلمة. رغم أنه في البـدء كان المشاع ، والفعل بلا كلام، فلم يكن ثمة لغة بعد.

وما كتابنا هذا إلا شرحٌ لذاك.

وما كشوفنا فيه إلا ناتج قراءة غير مقلوبة لأوضاع مقلوبة، ورؤيـة غير معتادة لرؤى معتادة ، وربط للأرض بالسـماء، وتسـجيل لأثـر الإنسان القدسي ووحيه الصاعد على معراج حركة المجتمع البشري.

وإذا وجد قارئنا في تلك المقدمة العجلى لغزاً، فما عليه إلا أن يشمر عن همته ليتابع معنا الحل في صفحات الكتاب.

سيد محمود القمني

الباب الأوّل

سفر التكوين السومري

تأسيس

يبدو أن بداية الألف الثالثة قبل الميلاد،كانت بداية لأهم أحداث المجتمع الإنساني، وأبعدها أثراً، فى منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص، تلك الأحداث التى تركت لنا تراثاً ضخماً، سجلته المدونات، حين بدأ اكتشاف الكتابة، حوالى ذلك الزمان، أو بعده بقليل.

فحوالى سنة ٢٩٠٠ق.م،كانت مصر قد تحولت من مجموعة مشتركات إقليمية، إلى دولة مركزية موحدة،بينما كان الشعب السومري، قد قضى حوالى خمسة قرون قبل ذلك،يلملم ذاته فى جنوبى وادى الرافدين الخصيب،حتى تمكن من تكوين مجموعة مشتركات مدينية، على هيئة مدن مستقلة،يشكل كل منها دولة قائمة بذاتها مع محاولات جادة للتوحيد، لم يكتب لها النجاح الأكيد،ومن ثم لم تقدر لها الاستمرارية،وإن استطاعت هذه المدن ــ إلى حد بعيد ــ أن تترك لنا تراثاً حضارياً ثرياً،يزخر بالقصص والملاحم والأدب الديني، يفسر نشأة الوجود كونياً وكائنياً.

وحوالى نفس الزمان،أو بعده بقليل،تدفقت على وادى الرافدين موجات بشرية مهاجرة،كانت ضمن بحر زاخر من دفقات شعوب مرتحلة، انتشرت بسرعة قياسية على صفحة بادية الشام،وكل بلدان الهلال الخصيب (الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين،الأردن) إضافة إلى بادية الشام،واصطلح على تسمية هذه الهجرات (هجرات

الشعوب السامية)،وقد زعم كثير من الباحثين أن مصدرها جزيـــرة العرب، وبالتحديد جنوب الجزيرة، وإن كانت هناك اتجاهات بحثيـــة أخرى لها وجاهتها،قدرت أماكن أخرى كمصــــدر لـــهذه الموجـــات البشرية المتدفقة على شرقى المتوســـط، تقصـــد أمـــاكن الخصـــب والنماء.

ويلخص (حسن إبراهيم حسن)مختلف اتجاهات الباحثين حـــول مصدر هذه الهجرات،التى بدأت فى الألف الثالثة قبل الميلاد ــ فيمـــا يزعمون ــ،أو هو بالتحديد يلخص أهم الآراء فى أصـــل الشـــعوب السامية، فيقول:

«وقد اختلف المؤرخون فى موطن الساميين الأصلى،أهم مـــن بلاد العرب؟ أم رحلوا إليها من أفريقيا (أصلاً؟)أم رحلوا إليها مـــن بلاد الجزيرة؟..فيقول أصحاب التوراة:إن مهد الإنســـان فيمـــا بيـــن النهرين (الرافدين)،ومنه تفرقوا فى الأرض فاشتق مـــن الســـاميين: الآشوريون والبابليون فى العراق،والآراميون فى الشام والفينيقيـــون على شواطئ سوريا،والعبرانيون فى فلسطين، والعرب فى جزيـــرة العرب،والأثيوبيون فى الحبشة، ومرجعهم فـــى إثبـــات ذلـــك إلـــى التوراة، ولا يقول هذا من علماء العصر إلا قليلون.ويـــرى بعـــض المستشرقين أن مهد الساميين فى أفريقيا،ونظراً لقرب بلاد الحبشـــة من بلاد العرب إقليماً ولغة،قالوا:إن مهد الساميين الحبشـــة،ويـــرى

بعض آخرون أن مهد الساميين جزيرة العرب،ومنـــها تفرقـــوا فـــي الأرض كما تفرقوا في صدر الإسلام،وذهبت طائفة أخرى إلـــى أن الساميين من جنوبي الفرات، ولكل من هـــؤلاء أدلـــة جغرافيـــة أو اقتصادية أو جنسية أو لغوية، ويرى بعض المستشرقين أيضـــاً، أن مهد الساميين في بادية الشام إلى نجد، ولم يقطع العلماء فـــي أصـــل مهد الساميين برأي حتى الآن»[1].

المهم أن هؤلاء النازحين لم يضيعـــوا وقتـــا طويـــلا، حتـــى استطاعوا أن يقيموا لهم دولاً في المنطقة، وتأتينا أهم هذه الشـــعوب التي أسست هذه الدول، ما بين الأكاديين AKADI الذين تمكنوا مـــن التسلل البطيء إلى بلاد سومر الرافدية، ثم استولوا عليها ووحـــدوا مدنها فـــي دولـــة مركزيـــة، بقيـــادة زعيمـــهم (ســـرجون الأول SHARRUKEN-I)،حوالـــى عـــام ٢٤٥٠ ق.م، وبيـــن الكنعـــانيين KANANI الذين تفرقوا في الأرض الشامية حوالى ٢٥٠٠ق.م، حيث أسسوا مجموعة حضارات متناثرة، حملت أسماء بطون كنعانية، هي فيما تزعم التوراة: المؤابيين، والآدوميين،والعمونيين، والعمورييـــن وقد استطاع البطن العموري أو الأموري في وقت لاحق، أن يخلـــف

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياســـي والدينـــي والثقـــافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة ١٩٦٤م، ج١، ص٨.

الدولة السومرية الحديثة التى خلفت الأكاديين فى الرافدين،وأن يؤسس الدولة البابلية بينما ظهرت على ساحل المتوسط جماعات أخرى،سلكت سبيل تفوقها بالسيطرة الملاحية على البحر، فى وقت متأخر من الألف الثانى قبل الميلاد،ويُرجح أنهم كانوا خليطاً من أجناس مختلفة، وإن غلب عليهم العنصر السامى الكنعانى، وهم من عرفهم التاريخ باسم الفينيقيين.

ويزعم المؤرخون،أنه قد تلت هذه الموجة الأولى من الهجرات ـ فى وقت متأخر نسبياً ـ موجة أخرى كبرى،حوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، هى هجرة الآراميين، الذين استقروا أول أمرهم فى بادية الشام، ثم أخذوا بمنافسة بنى جلدتهم الساميين على أراضى الخصب، سواء فى الرافدين أو الشام، ردحا طويلا من الزمان، فكانوا عامل اتصال وتواصل،بين ساميى الرافدين وساميى الشام، ويُرجح أنهم تكونوا من عدة بطون من أصل واحد. باعدت بينهم الأزمان والكثرة العددية، ويزعم بعض المؤرخين أنه كان منهم الشعب العبرى، الذى ظهر على صفحة التاريخ حوالى بداية القرن الثالث من الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن دخل مصر وخرج منها بقيادة النبى (موسى) حوالى عام ١٢٣٤ ق.م،بقصد الاستقرار فى أراضى الكنعانيين، أرض فلسطين الحالية، وتمكنوا حوالى ١٠٠٠ ق.م، أن يقيموا لهم دولة، كان أشهر ملوكها شاؤول ثم داود فسليمان، بينما ظلت بقية البطون الآرامية غير ذات شأن،حتى

استطاع بعضهم أن يثبتوا وجودهم مع اضمحلال الدول الكبرى فى الرافدين فقاموا بغزو ناجح لجنوب الرافدين،أسسوا على إثره الدولة الكلدانية حوالى عام ٦٢٥ ـ ٥٣٨ ق.م.

وهكذا كانت المنطقة مسرحاً رحباً لهذه الدفقات البشرية، التى تكسرت موجاتها على بعضها فى الهلال الخصيب،مما جعلها ميداناً لحروب مستمرة بين هؤلاء المهاجرين وبين من سبقهم وبين من لحقهم،مما أدى إلى تبادل الفكر والثقافة،لكنه أدى أيضاً إلى عدم استقرار دول هذه المنطقة مدداً طويلة،بعكس مصر، التى توحدت أراضيها مبكراً،وظلت دولة واحدة متماسكة طوال عصور تاريخها الطويل، عدا بعض الانتكاسات الطارئة،وهى انتكاسات لا تقاس بعمرها الحضارى، حتى أن الزمن الذى استغرقه مجموع هذه النكسات، يكاد يعادل الزمن الذى استغرقته أى من دول الهلال الخصيب متماسكة.

ورغم أن الباحثين يقطعون بأن الشعب السومرى الذى ظهر جنوبى الرافدين،قبل الهجرات السامية بحوالى خمسة قرون، أى حوالى ٣٥٠٠ ق.م، ليس من أصول سامية ورغم أن أصله لم يزل محوطاً بالغموض، فإن هؤلاء الباحثين قد تعارفوا على ابتداء العصور التاريخية شرقى المتوسط بالشعب السومرى، بعد أن احتسبوهم الأصل والدافع الأول للحضارة العريقة التى قامت فى بلاد الرافدين،وكانت فى رأيهم المنبع الذى استقى منه الساميون

الغزاة حضارتهم وفكرهم ودينهم،حتى أن كثيراً من هؤلاء الباحثين قد اعتبروا الحضارة السومرية،ذات تأثير مباشر وغير مباشر في ديانات شعوب شرقى المتوسط حتى العصور الهلينية[1] .بل ويذهب هؤلاء إلى الزعم أن أهم المآثر الدينية السومرية،تعد حتى اليوم أهم الأعمدة،لأهم المآثر الدينية الحالية فى منطقتنا،ناهيك عن لغتهم وطريقتهم التى ابتكروها والمعروفة بالكتابة المسمارية التى ظلت طوال العصور التالية لهم، حتى بعد زوالهم من تاريخ الدنيا، هى طريقة الكتابة المتبعة، والتى أخذها عنهم الغزاة من المهاجرين الساميين، ليسجلوا بها مآثرهم الحضارية، مما ساعد على انتشار أصرح للمآثر السومرية بين الشعوب السامية أما الساميون الذين تسيّدوا المنطقة بعد غروب النجم السومرى، فكانوا جميعاً من أصل واحد، وجنس واحد، بجملة عادات وتقاليد واحدة، مما سهل حمل الأفكار والمعتقدات فكانت اللغة السامية وسيلة اتصال جيدة (رغم تشعبها إلى لغات متعددة عبر تباعد اللهجات بتباعد الأمكنة والأزمنة)،بينما ظلت طريقة الكتابة المسمارية وسيلة توصيل دائمة الجودة.

وسعياً وراء ذوى التخصص، ولو مؤقتاً، ونظراً لما لدينا من

---

[1] جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص٢٦.

تحفظات سنطرحها فى حينها، فسنبدأ عملنا للكشف عن منابع سفر التكوين، بدراسة ما رآه الباحثون تراثاً أعرق وأقدم فى المنطقة؛ أقصد المنابع السومرية.

* * *

المجتمع:

حاول الباحثون باستمرار ــ وهم فى أغلبهم غربيون ــ أن يلقوا فى روعنا أن أى محاولات لاستطلاع أمر الرافدين قبل السومريين، هى محاولات عقيمة لن تصل أبداً إلى يقين، لأنه رغم أن الإنسان استوطن جنوبى وادى الرافدين قبل ما يزيد عن خمسة آلاف عام من الميلاد بزمان طويل[1]، فإننا لا نعرف إلا القليل النادر عن هؤلاء السكان، لعدم وجود مدونات خطية، فلم تكن الكتابة اختراعاً معروفاً بعد، وكل ما نعلمه أنه كان هناك مستوطنون فى المنطقة قبل السومريين، كان أشهرهم ما أطلق عليه اصطلاحاً (عصر العبيد)، نسبة إلى المكان الذى عثر فيه على آثارهم ويسمى الآن تل عبيد، وانتهى أمرهم بالانقراض مع الفيضان العاتى لدجلة

---

[1] جوردون تشايلد: التطور الاجتماعى، ترجمة لطفى فهيم، مؤسسة كل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٨٠.

والفرات المعروف فى الملاحم الدينية بالطوفان.

ورغم أن هؤلاء الباحثين يندفعون فى أغلبهم إلى اعتبار هـــذه الفترة السابقة على السومريين، فترة حضارة سومرية أيضـــاً، فـــإن باحثاً شهيراً فى الأثريات السومرية هو (صموئيل نـــوح كريمـــر)، يذهب إلى أن حضارة السومريين إنما كانت ناتج تلاقح واضح بيـــن شعب العبيد، المرجح عند (كريمر) أنه سامى الأصل، وبين الشـــعب السومرى الذين هم فى رأيه الوافدون الأغراب عـــن المنطقـــة، ثـــم يعقب بقوله: إنه «نتيجة للإخصاب المتبادل، ظهرت إلى الوجود أول مدنية راقية نسبياً فى بلاد سومر[1]»، هذا مع أخذنا بالحسبان تـــأكيد (لويد Loide) أن السومريين لم يصلوا إلـــى جنـــوب الرافديـــن، إلا حوالى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد[2].

لكننا ــ رغم إشارات باحث مثل كريمر ــ ســـنظل الآن مـــع الرأى الغالب، فنبدأ دراستنا مع السومريين، بحسبانهم لدى البـــاحثين فى مجملهم بداية وأصل الحضارة فى شرق المتوسط.

---

[1] صموئيل نوح كريمر: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصـــهم، ترجمة د. فيصل الوائلى، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، ص٥٦.

[2] سيتون لويد: آثار بلاد الرافدين، ترجمـــة د. ســـامي ســـعيد الأحمـــد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٧٠.

ومع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد ، يمكننا ان نرسم صورة ــ غير دقيقة المعالم تماماً ــ للمجتمع السومرى ، الذى شكل حضارة زراعية فى هذه المنطقة النهرية الخصبة ، فى شكل مشتركات قروية ، فى البداية ، ولم تكن التجارة والنقود متطورتين بشكل واضح ــ فيما يخبرنا به شيسنو [١] ،اما الملكية فقد أخذت شكل الحيازة الفردية ضمن المجموع ، المالك الحقيقى ، بحيث أن ما كان يخص الفرد ،إنما كان ضمن المشترك بوصفة عضواً متحداً به [٢] ، بل ويعلمنا (فرانكفورت Frankfort) أن كل شئ كان ملكية جماعية ، حتى أدوات الفلاحة والبهائم [٣].

ومع مرور الزمن،فى بيئة طبيعية متقلبة لا تعرف الاستقرار، وإزاء العواصف غير المتوقعة، والفيضانات المفاجئة ارتبط هؤلاء

---

(1) Chesneaux (jean): In Center d Etudes et de Recherches Marxistes-(C.E.R.M.) sur Le Mode de prouction a siqtque Edition sociales. Paris,1969,P.29.

(٢) موريس غود وليه (ضمن كتاب : حول نمط الإنتاج الآسيوي ، مع جان سوريه وآخرين،ترجمة جورج طرابيشى ، دار الحقيقة ١٩٧٢، ،ص٧٥).

(3) Frankfort (Henri)La Royaute et les dieux, Paiot, Paris, 1951,P.269.

بقوى غير منظورة، ربطوها بظواهر الطبيعـــة، وتمثلوهـــا فيـــها، وعبدوها رغبة ورهبة،واستشعروا إزاءها التبعية التامة، لكن يبـــدو أن ذلك لم يكن بحد ذاته كافيا لجلب النافع مـــن الطبيعـــة، أو علـــى الأقل لدرء غضبها وكوارثها،ومن هنا احتاجت الأمور إلى تكـــاتف القوى البشرية مع القوى الإلهية، عن طريق وسيط بشـــري، يتسـم بمواصفات رأوها آنذاك علامات لصلة جيدة بالآلهـــة، فكـــان هـــذا الوسيط هو الوساطة الناجعة مع الآلهة، فكـــان ذلـــك هـــو الشـــكل الرئاسى البدائى لإدارة شئون الجماعة، بقصد تقليل أخطار الطبيعـــة وجلب نفعها، عن طريـــق إدارة شـــئون العمـــل البشـــرى الفعلـــى المتكاتف، فى تنظيم أمور الرى والزراعة، والتخفيـــف مـــن نتـــائج الكوارث وتنظيم القدرات فى مواجهتها، وفى الوقت نفسه يتم ذلـــك بعلاقة الوسيط مع الآلهة،التى توحى له بأفضل السبل لتوقى أخطـــار كانت هى اليد الفاعلة فيها؟!.

ومن ثم تقاربت الجماعات لتشكل مجتمعاً متحداً إزاء الطبيعـــة، وتخضع لهيئة إدارية من المتصلين بالآلهة، لتمثيل المشترك أمامـــها، وقد كون هؤلاء فئة متميزة وجهازاً متراتباً، يعلوه شـــخص كـــفء، كحاكم مفوض من قبل المشترك،ومسئول أول أمام أعضاء المشـترك وأمام الآلهة فى آن واحد.

ويبدو أن الأمر قد بدأ بنوع من التفويض المؤقت لفرد (أصبـــح يختار له معاونين فيما بعد) من قبل أفراد المشترك جميعاً، والذيـــن

كانوا يشكلون مجتمعاً ديمقراطياً بدائياً، يمكن تصوره على هيئة مجلس عام. ويؤكد لنا (هنرى فرانكفورت H. Frankfort) أنه عندما ظهرت الكتابة، وجدنا إشارات لمجلسين هما: المجلس العام ومجلس الكبار[1]، ومن ثم تفرغ هذا الفرد ومعاونوه من العمل البدائي،وركّزوا جهودهم الذهنية فى التعامل مع الآلهة وقدراتها الطبيعية، بمحاولة قراءة هذه القدرات الظاهرة والتنبؤ المستطاع بفعلها المستقبلى للمحافظة على نظم الرى، وتلافى أو مواجهة مشاكل قد تنتج عن تقلب المزاج الإلهى فى الطبيعة، أو لمواجهة حروب طارئة مع مشتركات مجاورة تحتاج إلى نشاط سريع وحاسم.

ومع استمرار الطوارئ،تحولت الحاجة لهذه الإدارة من حاجة مؤقتة طارئة إلى حاجة دائمة مستمرة،مما أدى إلى ديمومة سلطة الوسيط ومعاونيه فتحول بالتدريج إلى كاهن وحاكم كبير،كما تحول المشترك القروى بذلك إلى مشترك معبدي، يضم مجموعة مشتركات قروية، لتظهر إلى الوجود دولة المدينة، التى تخضع كلياً لإله المدينة الأعظم، وبالتالي لنائبه ووسيطه الأرضى، حتى عُدّ هذا الإله سيداً

---

[1]Frankfort (Henri): The Birth of Civilisation in the Near East, Wiliams and Norgate Limted; Great Britain, 1951, p.290.

إقطاعياً متغيباً (لبعض شئونه)، لكنه كان يثبت حضوره باستمرار بما يطلبه من إنتاج أعضاء المشترك المعبدى، من قرابين ونذور وتضحيات وهبات، أدى تراكمها إلى زيادة قدرات الكاهن الحاكم الوسيط، وبدأ يتحول بما يملك من مواد متراكمة وأحياناً نادرة، إلى ملك مطلق النفوذ.

وبمرور الزمن، أخذ الملك يتفرغ للعمل الإدارى والسياسى، لمواجهة المشتركات الأخرى التى تحولت بدورها إلى ممالك،تاركاً مهمة الاتصال بالآلهة لأتباع فوضهم عنه لهذا الغرض، ليصبحوا وسطاء يعقدون معها المحالفات، ويتلقون توجيهاتها ويسكنون ثائرتها، ويبلغونها برغبات عُبّادها، ومن هنا بدأت تظهر ثلاث طبقات متمايزة،هى الطبقة الإدارية أو البيروقراطية ممثلة فى الجهاز الإدارى الحكومى وعلى رأسه الملك وحاشيته ومعاونوه ورجال جيشه، وطبقة الكهنة، وباقى جماهير الشعب التى تشكل الطبقة الثالثة فى الدولة.

وقد وجد الكهنة بالذات سبيلاً سريعاً للإثراء، من خلال إمساكهم بعنان المزاج الإلهى إن رضاً أو غضباً، مما أدى أحياناً إلى اصطدام الكهنة بالملك، مما كان يضطر الملك إلى خلع الإله المزعج، وإعلان نفسه إلهاً، بانقلاب سلمى يمسك بزمام الكهنة، وحينها كان نظام حكم المدينة يتحول إلى الشكل الاستبدادى المطلق.

لكن يبدو أن جدل التطور قد توقف بالسومريين عند حدود المدينة، فتحددت ملامح حضارتهم بحدود الدولة المدينية، ومن ثم اتسمت هذه الحضارة بخاصية المدن المستقلة، التى لم تعرف الوحدة الشاملة،إلا على يد الغزاة الساميين اللذين أقاموا الدولة الأكادية، إلا أن نظام المدن المستقلة السومرى، لم يوقف عملية التطور الداخلى لكل مدينة على حدة، فاستمرت عملية النمو الحضارى لكل مدينة تسير فى طريقها قدماً، مع تبادل الفكر والثقافة وأهم المآثر الدينية، وكافة الأساليب الحضارية المتيسرة لها، فيما بينها، وهو ما يعقب عليه (عبد العزيز صالح) بقوله:

> وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من بداية عصر الأسرات العراقي، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم.. وذلك على الرغم من أن أهلها فى مجموعهم،كانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم... ويحسون بتقارب مذاهبهم الدينية التى شجعتهم على أن يتمثلوا أربابهم فى بعض آخروتخيلوا صفات بعضها لبعض آخر[١].

---

[١] د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص٤٠١.

ثم يحاول (نجيب ميخائيل) تعليل عدم قيام وحدة سياسية سومرية مركزية كبرى، وهو الأمر الذى أنجزته مصر مبكراً بقوله:

إن الحياة فى وادى الرافدين.. كانت تختلف اختلافاً بيناً عنها فى وادى النيل، فوادى الرافدين أقل دفعاً للوحدة السياسية،ومن ثم كانت هناك الدول المدن التى تأخر توحيدها، وإن لم يقم ذلك دون تطورها، والعراق القديم كان مفتوحاً، بينما كانت مصر مغلقة، أسهم وجود الصحراء على جانبى واديها فى صيانة كيانها وردّ كثير من الهجمات حتى استطاعت أن تغلق فى كثير من الأحيان أبوابها، دون الطامحين فيها، أما مجاورات العراق القديم، فأراض خصبة، استطاعت أن تأوى إليها شعوب تهددها، وتعرض أراضيها للعدوان، الذى كان يؤثر على ركب الحضارة، فيعطله أو ينال منه[1].

ومع ذلك فيبدو أن السومريين قد استشعروا نوعاً من الوحدة

---

[1]د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٦، ص٤.

القومية بينهم رغم الفرقة السياسية، وهو ما يمكن أخذه من تأكيد الآثاريين:

> إنه ليس هناك شك بأن السومريين كانوا يعتبرون أنفسهم من صنف الشعب المختار..فى أسطورة آنكى ونظام العالم،التى تعالج موضوع خلق آنكى للذاتيات الطبيعية والحضارية والعمليات الضرورية للمجتمع المتمدن وتنظيمها، نجده يبارك بلاد سومر بكلمات رفيعة،تكشف أن السومريين يعتقدون بأنفسهم كمجتمع، أو بالأحرى مجتمع مميز ومقدس، متصل بالآلهة اتصالاً أقوى من اتصال بقية البشر بها، بشكل عام[١].

بل إنه رغم اعتراف المهتمين بالحضارة السومرية، أن السومريين مجموعة غريبة على المنطقة، فإنهم يزعمونهم أصحاب ثقافة قدر لها السيادة على جميع أجزاء الشرق الأدنى، فيقول (كريمر Kramer): «وتتجلى هذه السيادة الثقافية فى عدة اتجاهات:

١- أن السومريين هم الذين طوروا، ومن المحتمل أنهم قد

---

[١]كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤١٢.

ابتكروا، طريقة الكتابة المسمارية، التى اقتبستها جميع شعوب الشرق الأدنى على وجه التقريب.

٢- طور السومريون المفاهيم الدينية والروحية، كما أدمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى، وبضمنهم العبرانيون والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن، عن طريق الأديان السماوية»[1].

ويكمن ذلك عند (كريمر Kramer) فى أنه قد «طور السومريون خلال الألف الثالث قبل الميلاد، أفكارا دينية ومفاهيم روحية، تركت فى العالم الحديث أثرا لا يمكن محوه، خاصة ما وصل منها عن طريق الديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام،فعلى المستوى العقلى، استنبط المفكرون والحكماء السومريون، كنتيجة لتأملاتهم فى أصل الكون وطبيعته وطريقة عمله، نظرية كونية، وأخرى لاهوتية، كانتا تنطويان على إيمان راسخ وقوى بحيث أنهما أصبحتا العقيدة والمبدأ الأساسيين، فى أغلب أقطار الشرق الأدنى القديم، وعلى المستوى العملى والوظيفي،طور الكهنة ورجال الدين السومريون مجموعة من الطقوس.والشعائر والاحتفالات، الغنية بالألوان والتنوع، التى كانت

---

[1] كريمر: الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦١، ص١٩.

تؤدى لغرض إرضاء الآلهة وتهدئتهم،بالإضافة إلى ما فيها من إشباع عاطفي، لحب الإنسان للمهرجانات والمشاهد الضخمة»[1].

* * *

الآلهة:

وأهم ما يمكن احتسابه للفكر الدينى السومرى فى رأينا، أنه استطاع ــ مبكرا ــ أن يفصل بين الآلهة وبين أشكالها الطوطمية، فغلب على نقوش الآلهة الهيئة الإنسانية، بينما احتفظت الذاكرة بالأصل الطوطمى كرمز ينقش قابعا إلى جوار الإله،أو يحمله الإله بين يديه، أو يرسم على ثوبه، بعكس المصريين الذين لم يتحرروا تماما من الأصول الطوطمية للآلهة،فجسموا الإله فى الشكل الآدمى مع الاحتفاظ بالرأس الحيوانى الأصلى، ويبدو لنا ذلك ناتجا عن الفارق الطبوغرافى بين المنطقتين، حيث كانت مصر مغلقة الحدود، متجانسة التكوين جنسيا وفكريا إلى حد بعيد، بينما كانت الرافدين بلادا مفتوحة، تلاحقت فيها أجناس وثقافات متعددة، أدت فى أحيان كثيرة إلى نوع من التجريد المطرد، أدى إلى سلخ الآلهة من جذورها البدائية، وهى ظاهرة نلحظها أيضا فى تطويرهم الكتابة إلى

---

[1] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤١٢.

نوع من الخط المجرد، ابتعد بسرعة عن أصله التصويري، بينما ظل الأصل التصويرى فى الكتابة غالبا فترة طويلة على الكتابات الهيروغليفية فى مصر،ولم يتحرر المصريون منه بشكل واضح إلا بعد احتكاكهم بالشعوب الأخرى، وبعد غزوات متعددة لأراضيهم فى نهاية الإمبراطورية المصرية، وسقوط الدولة الحديثة، مما أدى بالهيروغليفية إلى التحرر من التصوير والتحول إلى التخطيط لتتطور إلى (هيراطيقية، ديموطيقية، قبطية) ولاشك لدينا أن هذا الميل إلى التجريد، قد صار خاصية لشعوب شرقى المتوسط الأدنى عموماً، لتشابه الظروف البيئية، وكان دافعاً فيما بعد إلى ظهور الفلسفة اليونانية، التى هى امتداد طبيعى لفكر المنطقة وتعد فى المقام الأول فكراً (أيونياً) مشرقياً، ومن خلال التفوق الفينيقى التجارى والبحرى وما نتج عنه من احتكاك اجتماعى، فى الألف الأولى قبل الميلاد.

ومع ذلك فقد استمرت التعددية المفرطة هى سمة الديانة السومرية، حتى أمسى للفأس إله، ولقالب الآجر إله، وللمسمار إله، ولكل فرد إله خاص به يحميه وفق طموحاته الشخصية، يحابى فيه نزعاته وطموحاته وميوله، إضافة إلى افتراض ربٍ أو ربة لكل ظاهرة طبيعية، كبر شأنها أو صغر، كما افترضوا لأربابهم صوراً بشرية ضخمة،وحياة تماثل حياة البشر،تزاوجوا فيها وتناسلوا وتحابوا وتخاصموا وتقاتلوا، لكنها كانت حياة سرمدية،ذات قدرات مطلقة.

أما عندما يكـون وجود هذه الآلهة ضروريا فى ذاتيات الكـون الموكلة بها، فإنها كانت تعيش فى (جبل السماء والأرض)[1]، وإنـي أتصور ذلك نوعا من الفصل بين آلهة عاملـة (شـغيلة) مرتبطـة باستمرار بالظواهر الطبيعية مطردة الحدوث،ودائمة التأثير المباشـر فى حياة الإنسان السومري، وبين آلهة متفرغة للعمل الذهنى النظرى وللإدارة فى جبل السماء والأرض، ويحتمـل أنـها كـانت الآلهـة الكبرى، والظن عندى أن ذلك راجع إلى ظهور الكهنة المفوضيـن للإدارة فى المشتركات الأولى، التى تحولت إلى مشتركات قروية ثـم معبدية، مما طبع شكل المجتمع الإلهي، بما وصلـت إليـه أحـوال المجتمع السومرى اقتصاديا وسياسيا، وكما تفرغ الكهان من العمـل البدنى للإدارة، فقد تفرغ مجموعة من الآلهة وتحرروا مـن العمـل الملاصق لعمل الطبيعة الدائم وهو ما تدل عليه أسماء هذه الآلهـة، الذين شكلوا مجاميع إلهية أشهرها:

- مجمع الآلهة مقررة المصائر، وعددهم سبعة.
- مجمع الآلهة العظام، وعددهم خمسون إلها[2].

---

[1] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٥٥.

[2] كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه بـاقر، مكتبـة المثنـى بغـداد، ومؤسسة الخانجى بالقاهرة، ١٩٧١،ص١٥٥.

وفوق هذه الآلهة جميعاً، كانت عناصر الكـــون الكــبرى، ذات التواجد الدائم الثابت (السماء، الأرض، الهواء، المـــاء)، آلهـــة لـــها خصوصيتها المتميزة باســـتمرار التواجــد المنظـــور، إزاء الآلهـــة الأخرى متغيرة الأحوال، التى لا تتسم بديمومة التواجد،ونذهب إلـــى أن ملاحظة السومرى المستمرة لجدل التأثير المتبادل بين الظواهـــر الأربع الثابتة، فى إنتاج الحياة، وضرورة اســـتمرار هـــذا الجـــدل لضمان استمرار الحياة، كما لو كانت مهمتها الإشراف علـــى هـــذه الاستمرارية وتتابعها. أقـــول: إن هـــذه الملاحظـــات قـــد ســـوغت للسومرى المتأمل، الاعتقاد أن هذه الظواهر الأربع إنما هى أربـــع من الآلهة،تكاتفت معا لتقوم بخلق بقية كائنات الوجود، ومن ثم أطلق عليها (الآلهة الخالقة)، وهي:

- آن AN الإله السماء.
- كى KI أو (جى) GI الإلهة الأرض زوجة إله السماء.
- آنليل AN-LIL الإله الهواء ابن إلهى السماء والأرض.
- آنكى AN-KI الإله الماء.

ويرجح (كريمر) أن تكون هذه الآلهة الأربع هـــى الأعضـــاء الكبرى فى مجتمع السبع مقررة المصائر، ويكون بقية هذا المجمـــع إذن هم الآلهة:

- نانا NANA الإله القمر.
- أوتو UTO الإله الشمس وهو ابن الإله القمر.
- إينانا ENANA إلهة كوكب الزهرة[(١)].

وإن كان موسكاتى يجعل من هذه الثلاث الأخيرة أسرة إلهية مثلثة تضم: الأب القمر والأم الزهرة والابن الشمس[(٢)].

وهكذا تكون مجمع الآلهة السبع مقررة المصائر، من أسرتين ثالوثيتين كل منهما يشتمل على ثالوث (أب وأم وابن)،فشكلا معا ستة من الآلهة، بينما ظل سابعهم (أنكى ــ الماء) حالة شاذة وسط هذا المجمع، باعتباره ليس عضوا فى أى من الأسرتين الثالوثيتين،وإن كان يكمل الأسرة الأولى لتصبح أربعا من الآلهة الخالقة، وهو أمر حيرنا من البداية، لكنها حيرة أثمرت عن كشف هام، يعد واحدا من أعمدة هذا القسم من بحثنا.

وحتى نتمكن من الوصول بقارئنا إلى الكشف المأمول، نقف أولا مع الآلهة الأربع وقفة تفصيلية بعض الشىء، نستقى أخبارها

---

(١) كريمر: السومريون...، سبق ذكره، ص١٦٣.

(٢) سبتنيو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص٧٥.

من المصادر، فتطالعنا بأن:

١- آن **AN**: هو إله ذكر،.وهو إله السماء، والكلمة (آن) تعنى أيضا السماء المنظورة ذاتها، وكانت فى رؤيتهم سقفا يعلوهم، ثم أصبحت (آن) بالتدريج علما ورمزا على الألوهية عموما، فعادلت ــ بمعنى من المعانى ــ اسما للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهى وبذلك حملت معنى السيادة والرفعة والسمو، لذلك كان (آن) سيد الآلهة جميعا، باعتباره فى نظرهم كان الأب الأول لكل الآلهة وسيد الآلهة السبع مقررة المصائر [1].

ويقول (كريمر):إن الأسباب التى أدت إلى تسيد (آن) مجموعة الآلهة السومرية، أسباب غير معروفة[2] .لكننا نتصور وببساطة أن رؤية الرافدى القديم للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأحداث والظواهر فيها مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامة هذه الأحداث، ومطرها الذى يشكل للأرض منى الحياة، ثم إحاطة السماء

---

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٠٣، انظر أيضا جان بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦، وكريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٥٧، ود. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص١٤٣.

[2] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٢.

للأرض فى الأفق، وتغطيتها من جميع جوانبها، كل ذلك كان كفيلا بتصورها بما يلائم عظمة اتساعها ورحابتها وتعدد الإمكانات فيها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التى مهما بلغت مظاهرها هولا وغرابة،فإنها لم ترق أبدا فى نظره إلى درجة ظواهر السماء، مع أخذنا بالحسبان عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولا دائما يقع فى نفسه موقع الجليل، بما له من هيبة ورغبة واحترام وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة، وأبا أولا دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة مستمرة، يخصب الأم الكبرى (كى KI) الأرض، وهو يحتضنها ليلقى فى أحشائها بدفقات ماء الحياة، ومن هنا ظلت السماء (آن)، وظل الإله (آن) يقع فى الوهم الإنسانى ــ حتى اليوم ــ موقعه القديم، فنتحدث عن الإله مجازا فنقول: السماء، أو نتصوره قابعا على عرش فى بيت إلهى فى السماء، أو ننفعل فنقسم أغلظ الأيمان بحق السماء! ولا يبقى عن (آن) الآن، سوى ترجيحنا أن يكون هو نموذج الأب الأول فى مشترك العشيرة البدائى.

٢ــ كى KI أو جى GI: وهى إلهة أنثى هى الأرض تعددت أسماؤها وشخصها واحد، فهى كزوجة للسماء الذكر (آن AN) تسمى (أنتوم AN-TUM)[١] مؤنث الكلمة (آن AN) وهى أيضا (نينماه أو

[١] بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦.

نينا ماه NIN-MAH)[١]، والاسم (نينماه) يشير إلى مدلول هذه المعبودة فى الذهن السومري، فهو مركب من ملصقين: (نن NIN) بمعنى السيدة أوالعظمى، أو السيدة العظمى. ولازلنا ننادى الأم، والأم الكبرى (الجدة) باللفظ (نينا)، والملصق الثانى (ماه MAH) أى الأم، وتصبح الترجمة: السيدة الأم، أو الأم العظمى أو الأم الكبرى، كما عرفت (كى) أيضا باسم (نينتو NINTO)[٢] وهو اسم يحمل أيضاً معنى الأمومة، لأن (نن = السيدة + تو = تلد) أى السيدة التى تلد، أو السيدة الوالدة، أو إيجازاً: الوالدة. كما سميت أيضاً (أرش ARSH) بمعنى أرض، كما حازت على الألقاب (مامى MAMY) و(ماما MAMA) و(ما MAH)[٣]، وكلها تحوى (ميم) الأمومة.

وقد شكلت (كى) مع (آن) فكرة ابتدائية عن نشأة الحياة على الأرض أو ما يمكن اعتباره سفراً بدئياً للتكوين، صادقاً صدق بدائيته، مطابقاً لراسب خبرات الإنسان، وملاحظاته، عن دور مطر السماء أو منىّ (آن) وفعله فى الأم الأرض لتنتج الحياة، لكن هذا

---

[١] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣، انظر أيضاً فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٤٦،٢٤٧.

[٢] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣.

[٣] د. فاضل عبد الواحد: الطوفان فى المراجع المسمارية، أوفست الإخلاص، بغداد، ١٩٧٥، ص٥٤.

السفر يقف عند هذا الحد عندما يبدأ الخيال الإنسانى يتدخل فى صناعة الفكرة، ليأخذ التكوين خطا آخر أكثر تعقيدا من بساطة الحقيقة.

٣ ـ آنليل **ANLIL**: وهو إله ذكر، هو إله الهواء وهو الضلع الثالث، فى ثالوث : الأب فيه آن والأم كى والابن آنليل، وعنه يقول (جان بوتيرو):

«آنليل يعنى باللغة السومرية، سيد الريح والعاصفة ومجال عمل آنليل هو الأرض، فهو الذى يسير البشر... وقد لقب السيد[١] ولنلحظ أن الاسم (آنليل) مركب من(آن = سيد أو إله أو رب + ليل وهى مادة ما بين السماء والأرض من هواء ورياح وسحب)، ويقول (نجيب ميخائيل): ...«إن كلمة آن ليل تعنى أصلا سيد الريح والروح، وهو لم يأخذ لقب سيد الأرض إلا فيما بعد..ومعبده هو(بيت الجبل E-KUR)[٢]،ويقول (عبد الحميد زايد) أن آنليل هو سيد ما بين السماء والأرض،فهو إله الهواء وما يتعلق به،كما لقب أيضا بأبى الآلهة..كما يقود آنليل الآلهة إلى الحرب،فهو يمثل القوة والبطش،فكان آن يرأس الاجتماعات فى مجمع الآلهة وكانت وظيفة

---

[١] بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٧.
[٢] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٥،١١٧.

آنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان، وكانت وظيفة آنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان فى الدولة،هما السلطة التشريعية والتنفيذية، ..وقد عُهد إلى آنليل بالمحافظة على ألواح القدر»[١]، ومن ألقابه «سيد جميع البلدان،أبو جميع الآلهة، مقرر المصائر، الذى لا رجعة لقراراته، الذى يمتلك ألواح القدر الذى فصل أباه السماء عن أمه الأرض، خالق الفأس أداة العمل، الجبل العظيم، هذا وكان مقر عبادته فى مدينة نفر، وكان هنالك تقليد سنوي،تذهب فيه بقية آلهة المدن لطلب الرحمة والبركة من آنليل لحكام مدن هذه الآلهة،وهو الإله الوحيد الذى اغتصب أنثاه ننليل،فأنجبت منه القمر نانا»[٢]،مع ملاحظة هامة هى أن رمزه التصويرى كان ذات رمز إله السماء آن.

ويقول (كريمر) إنه «..يوجد فى أقدم التصانيف السومرية المنشورة عدد كبيرمن القطع الأدبية التى نطلق عليها اسم المراثى، نرى فيها الإله (آنليل) يقوم بذلك العمل البغيض، وهو القيام بإحداث

[١] د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص١٤٤.

[٢] د. فوزي رشيد: الديانة، المعتقدات الدينية، (ضمن سلسلة كتب تاريخ العراق مع آخرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ص١٥٢،١٥٤.

الدمار وتنفيذ الكوارث والبلايا،التى كانت تأمر بها الآلهة لسبب من الأسباب، وهذا هو السبب فى وصم آنليل بأنه إله شرس مدمر فى كتابات الباحثين القدماء فى الشئون السومرية،ولكن الحقيقة هى أننا لو حللنا التراتيل والأساطير لاسيما ما نشر منها منذ عام ١٩٣٠، لألفينا الإله آنليل وقد مجدوه بصفته إلهاً رحيماً، يتحلى بالحنو الأبوى، ويُعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم»[١].

وبالاجتهاد يمكننا فهم هذا التضارب فى شخصية آنليل ويمكننا تفسير استطاعته إزاحة أبيه (آن) ليتحول إلى رمز مسلوب السلطان،وهو أمر شائع فى الميثولوجيا الشرقية عموماً، فى قصة الابن الذى يتفوق على أبيه ويسلبه سلطاته، وهو ما يبدو لنا صدى طبيعياً لواقع أحوال الإنسان البدائى قبل استقراره وتحضره، حيث كان الأب القوى يظل سيداً أو حامياً للقطيع حائزاً لكل الإناث، حتى يظهر من بنيه ذكر قوى ينافسه السيادة وحيازة الإنساث، فينازعه سلطانه ويدعوه للنزال، فى وقت يكون فيه لعامل السن دوره، فى إزاحة الأب الكهل، ليحل الابن الشاب القوى محله فى سيادة القطيع والذود عنه، ويتحول هو إلى أب جديد للقطيع، لكن هذه السيادة الأبوية البدئية، بدأت تفقد سلطانها مبكراً مع التطور الاجتماعى، عندما أصبحت السيادة تحتاج إلى مقومات أكثر من مجرد الأبوة،أو

---

[١] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٣.

القوة الجسدية واستدعت وجود كفايات متعددة فـي سـيد العشـيرة، المفوض من مجموعة عشائر مؤلفة من مشترك بدائى، مما أدى إلى ضرورة التحول نحو قانون جديد، فرضته ظروف التجمـع الأكـبر حيث ساد مجموعة من رؤساء العشائر الآباء، تحول أحدهم إلـى أب مفوض للمجموعة العشائرية المتحدة فى مشترك قروى ثم معبـدى ليكون همزة الوصل بين الأب القديم الذى تحول إلى إله غائب، وبين أفراد المشترك،أو بين الآلهة عموما وبين الناس، فى شـكل كـاهن رئيس، متحرر النفوذ من أسر مجلس القبيلة العام.

أقول: عندما فقد الأب البدائى سلطانه فـى المجتمـع الأكـبر، انعكس ذلك على عالم الآلهة، ففقد إله السـماء سـلطانه الأبـوي، المتصف فى الأساطير بالحنو البالغ والشفقة، وظهر ولده آنليل، وقـد حدث ذلك على ما يبدو بالتدريج البطيء الذى حدث به فـى عـالم البشر، حتى صار (آن) مجرد شخصية هلامية مبهمة غامضة فـى مجمع الآلهة، وإن ظل محتفظا باحترامه كـأب أول خـالق، لكـن مسلوب السلطات.

وكما تحول الأب المفوض فى المجلس العام بالمشترك البدائـى إلى حاكم متحرر النفوذ، تحول آنليل بمفهوم الألوهية مـن الرحمـة إلى الشراسة، يمتلك أقدار الناس وأقواتهم (الذى يمتلك ألواح القـدر)، ويتفرغ للعمل الذهنى لتطويـر أدوات الإنتـاج (خلـق الفـأس أداة العمل)، وينظم أعمال الناس (يسير البشر)، ويقود الجيـوش (يقـود

أنليل الآلهة إلى الحرب)، لذلك أصبح (سيد جميع البلدان)، وتوجب (أن تذهب إليه بقية الآلهة لطلب الرحمة) باعتبار الحاكم الذى يمثل أنليل مفوضاً من جميع العشائر المتحدة وسيداً متحرر النفوذ محـ... الأب البدائي، وهو ما ترك أثره فى تصويره الرمزى، بنفس ر... الأب آن.

٤ ــ **آنكى ANKI أو آنجى ANGI**: وهو إله ذكر، يتركب اسمه من ملصقين (آن = السماء + كى = الأرض)، أى (السماء والأر... وبترجمة بعض الباحثين (السيد الأرض) باعتبار (آن) تعنى الس... والجلالة أيضا، فهو بذلك إله الأرض، لكن هذا يتضارب ... ميثولوجية متواترة فى ميثولوجيا البلدان الزراعية، حيـ... الأرض دوماً إلهة أنثى كمصدر للحياة، كما يتضارب مـ... أخرى هى أن آنكى كان يعد لدى السومريين إلهاً للماء وكان بـ... الصفة إلهاً ذكراً، حيث كان سكان المناطق الخصبة ينظرون إلى الماء كمنى للأرض،وسائل يخصب الأنثى الأرض لتحمل بالزرع.

وسمى آنكى باسم آخر هو (آبسو ABZU) وهو بدوره ملصق من كلمتين (آ A = الماء) + (بسو BZU)، ويترجم الباحثون (BZU) بمعنى البعيد أو العميق[1]، ويقول (نجيب ميخائيل)، إنهم

[1] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٨.

قصدوا بذلك المياه الجوفية[1]، لكن الغريب في بابه أن هــذا الإلــه، وهو رابع الآلهة الخالقة الأربع، المكوّنة من أسرة ثالوثية (آن، كــي، آنليل) مضافاً إليها (آنكى) رغم كونه ليس عضوا فى الأســرة!! ثــم لماذا يكون (آنكى) ماء العمق أو المياه الجوفية بــالذات، كعنصــر إحياء فاعل فى عملية الخلق؟ لماذا لا تكون مياه الأمطار أو الأنــهار هى صاحبة هذا الدور الخالق، فى بلد يغمره النــهران العظيمــان: دجلة والفرات؟.

الحقيقة أنى وقفت مع (آنكى) أو (آبسو) وقفة طويلــة، انتــهيت منها إلى اعتباره فعلاً ذكراً هو الماء، لكنه ماء إلهى أو هــو منــى الإله (آن) السماء، الذى زرعه فى رحم الأم الأرض (كى).وهو مــا يفسر لنا تركيب اسمه من السماء والأرض معاً (آن + كــى)، فــهو الفعل المشترك لأبوى الحياة، هو ماء الحياة الذى استقر فــى رحــم الأرض لتظل دائما مصدراً مستمراً للحياة مما يفســر غيــاب (آن) وتواريه، بعد أن قام بالمطلوب منه دفعة ومرة واحدة،ثم ترك لمائــه أن يفعل فعله المستمر فى إنتاج حياة مستمرة، وهو أيضاً ما يفســر لنا تأليه (آنكى)كإله خالق،رغم كونه ليس عضواً فى الأسرة الخالقــة الثالوثية، فهو خالق باعتباره منى (آن)،أو هو روح قدسية منه حلــت فى حشا الأم الأرض (كى)، ويلتقى ذلك مع اعتقاد الســومريين أن مياه الأنهار تنبع من مياه العمق تحت الأرض، وهو ما يشككنا فــى

---

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٨.

ترجمة (آبسو) بماء العمق فكلمة (آبسو)، نعم، تحمل معنى الغور والبعد، لكنها مع فهمنا للأمر تتضح، فتصبح (المياه الكامنة فى الرحم). وأقترح الترجمة الأدق وهى (السائل المخصب)، ويدعمنى فى ذلك أن الإله (دومو زى آبسو DUMU-ZI-ABZU) يترجم اسمه إلى (الابن الحقيقى لمياه العمق)[1]، علماً أنه كان إلهاً للخصب وموكلاً بإخصاب الأرض، إضافة إلى أن (آنكى) باسم (آبسو) كان يعد خالق الزرع والحياة والبشر، أو نصياً (الذى خلقت يداه البشر)[2]وهو (خالق العالم)[3]، وإن تحليلنا هذا، وترجمتنا تلك، توضح لنا: لماذا أدخله السومريون ضمن الآلهة الخالقة،رغم كونه ليس فرداً فى الأسرة الثالوثية الخالقة، وهو ما ينقلنا إلى بحث الدور الذى قام به كل من الآلهة الأربع، فى عملية الخلق.

* * *

---

[1] د. فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٣، ص٣٦،٤٠.

[2] د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص١١٩.

[3] بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٨.

التكوين الكونى

عندما لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد، تصور السومريون الأرض قرصا منبسطا هو الدنيا، محدد بحدود لا تتجاوز الهند شرقا والبحر الأبيض المتوسط غربا، وبلاد الأناضول والقوقاس شمالا، والخليج العربى وبعضا من المحيط الهندى، وجزيرة العرب، جنوبا.

ويقع تحت هذا القرص، عالم تحت أرضى سفلى، هو مقر الأموات، ويلى مقر الأموات مياه العمق، التى اتفقنا على ترجمتها بـ (السائل المخصب آبسو ABZU أو آنكى ANKI)، ولو صعدنا على وجه القرص الأرضى، نجد هناك قرصا آخر يعلوه هو السماء، مقر (آن) وكثير من الآلهة، وهو قرص محدب فى شكل قبة صلبة تحيط بالقرص الأرضى من جميع جهاته، ثم ما بين القبة السماوية والقرص الأرضى، يمرح الريح أو الهواء أو الروح أو الجو أو الأثير، تلك المادة التى أسموها (ليل LIL)،وكل هذا فى مجموعه يقف راكدا فى بحر لامتناه يحيط بالكل من جميع الجهات، وهذا البحر اللامتناهى كان ـ فى اعتقادهم ـ منبع كل الوجود ومادته الأولى[1]، وهذا هو كل شىء، كل الكون: منظورا وغير منظور.

---

[1] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٤٩، ١٥٠.

ورغم أنه لم تصلنا عن السومريين نظرية متكاملة، توضح لنا آراءهم فى كيفية وجود العالم ونشأته، فى الآثاريات المكتشفة حتى الآن على الأقل،فإنه يمكن استخلاص سفر تكوين سومرى، من خلال دراسة متأنية للنصوص المتفرقة فى أساطيرهم وآدابهم المتعلقة بالخلق، مع أخذنا بالحسبان أن هذه الأساطير ليست بالسذاجة التى تبدو ظاهرة فيها، إنما هى لغة لها خصوصيتها ومفرداتها المتميزة، واصطلاحاتها الخاصة، لتبليغ ما تريد من حقائق مقررة فى نظر أصحابها مع اعتبارنا لمراحل التطور التدريجى التى سار فيها الفكر الإنسانى بادئاً من مثل هذه البدايات الأولى.

وكغيرهم من الشعوب، تأمل السومريون فى طبيعة الكون وأصله، ونشأته، فظهر لديهم فى غضون الألف الثالث قبل الميلاد، طائفة من المفكرين والحكماء حاولوا إشباع هذا الفضول المعرفي، بوضع إجابات مُرضية، للتساؤلات التى أثارها تأملهم فى الكون وطبيعة الأشياء، دفعت الآثاريين إلى حد الزعم أن السومريين وصلوا إلى آراء ومعتقدات ومبادئ، أصبحت أساساً لعقائد شعوب الشرق الأدنى[١]، ودفعت بنا نحن إلى جمع شتاتها من الأساطير والملاحم، لتعطينا سفرا سومريا للتكوين، يمكن أن تتضح سماته تدريجيا مع بحثنا هذا.

---

[١] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٥١.

وسعيا وراء هدفنا هذا، نجد فى اللوح الذى يعدد أسماء الآلهة السومرية تقريراً لمبدأ يقول: إنه فى البدء كانت (نمو NAMU)، وقد عبّر الخط المسمارى عن (نمو) بالمقطع الصورى الذى يعبر عن البحر، ووصفت (نمو) بأنها الأم التى ولدت السماء والأرض، وهو ما يصور لنا الوجود قبل التكوين كمحيط أو غمر من الماء الأولى الأزلى،وهو تصور غالب على ثقافات الشعوب القديمة التى اعتقدت بخروج الآلهة من محيط عظيم، كان هو الوجود الأول قبل أن توجد كائنات الطبيعة.

وقد فسرت مدرسة التحليل النفسى انتشار نظرية الميلاد المائى لدى الشعوب القديمة، باعتبارها انعكاساً لذكرى كامنة فى لاشعور الإنسان، حول حالة الجنين فى الماء الرحمى للأم، سابحاً فى بحره الأول،ويذهب بعض الباحثين مثل (فراس السواح) إلى تفسير ميلاد الأرض والسماء من البحر الأول، بأنه وسط الماء ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل، قبته السماء وقاعدته الأرض[1] والسماء هى ما عرفناه باسم (آن AN إله ذكر)، والأرض هى ما عرفناها باسم (كى KI أو جى GI إلهة أنثى)، وأنه نتيجة التزاوج بين القبة (آن) والقاعدة (كى) جاء الابن الإلهى فى أول أسرة ثالوثية (آن ليل)، والاسم الإلهى (آنليل) ملصق كما أسلفنا من كلمتين (آن = لفظ جلالة + ليل = مادة ما بين السماء والأرض) ذلك الإله الذى شب مبكراً

---

[1] السواح: مغامرة العقل الأولى، دارة الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٧.

عن طوقه، ففصل أباه عن أمه الأرض، ورفع الأب إلى الأعالى (سماء)، وحط بالأم إلى الأسفل (الأرض). وقد جاء ذلك متفرقا مشتتا فى عدة أساطير، نقتطع بعضا مما جاء فيها، مثل أسطورة خلق الفأس (ترجمة كريمر)،التى تستهل بمقطع يقول:

الرب الذى يملك حقا
هو الذى أظهر للعيان
الرب الذى لا يتبدل فى أحكامه آنليل
الذى يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها
تولى برعايته فصل السماء عن الأرض
تولى برعايته فصل الأرض عن السماء[1].

إلا أن (فوزى رشيد) الباحث العراقى فى السومريات، يعطينا ترجمة أخرى لذات المقاطع، فيقول:

السيد الإله آنليل
قد جعل كل ما هو نافع، يبدو ناصعا
السيد الذى تقريره للمصير لا يمكن أن يتغير
قد أسرع لفصل السماء عن الأرض
قد أسرع لفصل الأرض عن السماء[1].

---

[1] كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٦٥،٦٦.

وفى ملحمة أخرى، لم يتم التعرف على عنوانها بسبب ما أصابها من تلف، اصطلح على تسميتها (KAR.4-Mathos)، جاءت أبيات تقول:

عندما فصلت السماء عن الأرض
بعدما كانتا متصلتين
ظهرت الإلهة الأم
وبعدما وضعت الأرض وثبتت فى مكانها
وبعدما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض
وبعدما نظمت الآلهة الجداول والقنوات وثبتت شواطئ دجلة والفرات
جلست الآلهة :
آن
آنليل
أوتو
آنكى[٢]

وقبل أن نمضى فى استقصاء قصة التكوين السومرية من

---

[١] د. فوزي رشيد: خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، مجلة آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨١، ص١٧.
[٢] د. فوزي رشيد: الموضع نفسه.

المتفرقات المتناثرة، نقف هنيهة مع ما أسلفنا ذكره،لنحـــدد الأمـــور بشكل أقرب إلى الدقة والوضوح، فنقول:

إن الاجتهاد فى تفسير خروج السماءوالأرض من البحـــر الأول (كما ورد عند الباحث سواح)، على أنه خروج لجزيرة أو جبل مـــن الماء الأول، قبته السماء وقاعدته الأرض، هو اجتهاد لا مبرر لــــه، كما أنه لا سند له فيما بين أيدينا من ملاحم وأســــاطير، وكـــل مـــا وصلنا هو إشارات عامة عن اعتقاد بوجود محيط ماء أزلى، ومنـــه كانت السماء (آن) والأرض (كى)، ومنهما جـــاء (آنليـــل) ليفصـــل بينهما، ولا شىء زيادة على ذلك فى هـــذا الجـــزء مـــن التكويـــن السومرى ومن هنا أتصور الفهم الأصح، هو أن هذا المحيط البدئـــى كان ذكرا وأنثى فى ذات الوقت،أى أنهم تصوروه كائنا لديـــه قـــدرة التوالد الذاتى، فكان فيه الماء المذكر، والماء المؤنـــث، وهـــو مـــا ستؤيده قصة التكوين الأكادية والبابلية،التى سنفصل القول فيها فيمـــا بعد، بعدما عثر عليها شبه متكاملة، ويزعم الباحثون أنـــها أخـــذت مادتها وتفاصيلها عن التراث السومرى، فأكدت القصة الأكاديـــة أن البدء كان ماء ذكر وماء أنثى، أنجبا سلسلة كيانات الوجـــود علـــى

التوالى[1]، وهو ما يدعم فهمنا المبدئى الحالى للتكوين السومرى.

ونتيجة لتلاقح هذا الكائن المذكر المؤنث مع ذاته، أنجب كيانا جديدا هو (ليل)، الذى ترجم بمعنى الهواء، وأرى أنه يحمل فى اسمه أيضا معناه الذى حملته كل اللغات السامية بما فيها العربية، بمعنى الليل أو العتمة، وبإضافة اسم الجلالة السومرى (آن) يصبح (آنليل AN-LIL)،وفى اللغات السامية بدءا من الأكاديين الذين حلوا محل السومريين فى الرافدين يحل اسم الجلالة السامى (إيل أو إل EL) محل اسم الجلالة السومرى (آن)، فيصبح (آنليل) هو (الليل EL-LIL)[2].

---

[1] فى قصة التكوين البابلية Enuma Elish (وكان يراد بها تمجيد مردوخ كبير آلهة بابل بحسبانه خالقا للكون) جاء القول: إنه فى البدء لم يكن فى الوجود سوى محيط من الماء شاسع، اختلط فيه الماء العذب (آبسو)، بالماء المالح (تيامة) التفاصيل يرجع إليها فى موسكاتى، سبق ذكره، ص٨٣،٨٥.

[2] من المعروف لدى الباحثين فى تاريخ الديانات وفى الميثولوجيا بشكل عام أن (إل) أو (إيل) يعد كبير الآلهة السامية على اختلاف مواطنها، بما فيهم اليهود وقد ورد اسمه فى التوراة مرافقا للعهد الإبراهيمي حتى نبوة موسى، كما ورد ملصقا فى أسماء الأعلام، لآلهة أدنى منه شأنا تحولت مع التطور إلى (الملائكة)، كما فى أسماء عزرائيل، جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل إلخ.

ويساعد على فهمنا هذا،أن (نانا NANA) إله الليل وهو القمر متولد أصلا فى المفاهيم الرافدية من الهواء، وتؤكد الأساطير الرافدية أن القمر ابن (آنليل)، ومن هنا نعتقد أن الهواء والليل حملا معنى واحدا لدى السومريين.

وهكذا جاء الهواء أو الليل أو العتمة أو الظلمة (آنليل)، ليفصل فى الغمر أو البحر الأول (نمو) بين مياه ومياه، فرفع المياه الذكر إلى الأعلى لتصبح سماء وحط بالمياه الأنثى إلى الأسفل لتصبح أرضا وفى ذلك ما يفسر لنا اعتبار الإله (آنكى ANKI) إلها للماء، كما يلتقى مع تصور الأقدمين للسماء كبحر علوى، تهطل منه الأمطار والسيول، عندما تفتح أبوابه بماء منهمر.

وبذلك تمكن (آنليل) من أن يحدد فى الماء الأول بين ماء ذكر وماء أنثى، ويفصلهما عن بعضهما، حدد لكل منهما هويته وذاتيته وشخصيته المستقلة، وهو ما يمكن فهمه من ترجمة كريمر السالفة (هو الذى أظهر للعيان)،والتى حاول (فوزى رشيد) أن يجعلها أوضح فى ترجمته لنفس النص(قد جعل كل ما هو نافع يبدو ناصعا)، أى واضحا ومحددا ومستقلا بشخصه، وأتصور أنه حتى (يظهر للعيان) ويجعل كل ماهو نافع (يبدو ناصعا)، كان لا بد من عمل آخر هو أن يحيل الظلمة التى على وجه الغمر البدائى إلى ضياء، يظهر للعيان ويجعل المرئيات ناصعة واضحة، لذلك جاء فى زعم (كريمر) أن (آنليل) هو الذى جاء بالإله الشمس (أوتو AUTO)، ولعل أوضح تأييد لفهمنا هذا ما سجلته نهاية المقاطع التى

أوردناها من أسطورة (KAR.4-METHOS)، أقصد:

وبعد ما وضعت الآلهة قواعد السماء
والأرض
جلست الآلهة:
آن
آنليل
أوتو
آنكى

ويظهر هنا (أوتو) الشمس،مقروناً بظهور الكيانات الكبرى في الوجود، ويأتينا الإله (آنكى) إله الماء، بديلاً عن (كى) الأرض ضمن الأربعة الخالقة التى عرفناها، والتى اختفت منها في هذا النص الإلهة (كى)، مما يوحى بما زعمناه، حول حسبانهم الأرض كانت أصلاً مياهاً، انفصلت عنها مياه السماء، ثم وبعد عناء عملية الخلق الكبرى تلك، جلست الآلهة على عروشها، أو استراحت، أو استوت.

التكوين الكائنى:

مع أسطورة (جلجامش وإنكيدو والعالم السفلى) نتابع بحثنا عن حقائق سفر التكوين السومرى، فيوقفنا مقطع واضح في مقدمتها

يقول:

بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض
بعد أن انفصلت الأرض عن السماء
بعد أن عين اسم الإنسان
بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)
بعد أن أصبحت الأرض بحوزة (آنليل)[١].

ونفهم من ذلك، أنه بعدما انتهى (آنليل) من فصل السماء عن الأرض وبعد ما نظم كونه، وبعدما تقرر خلق البشر على الأرض (بعد أن عين اسم الإنسان)، اتحد (آنليل) بأمه الأرض، بعد أن أزاح أباه، وهو ما يلتقى مع فروض مدرسة التحليل النفسى، فى رغبة الابن إزاحة الأب والاستيلاء على الأم، خاصة أن أفعال (آنليل) الخالقة تتوقف عند هذا الحد،ولا يظهر له دور فى عملية خلق الإنسان، فيما تحت أيدينا من نصوص، كما لو كان تحقيقاً لرغبة موقوفة التحقيق والنتيجة، فلا هو ينجب من أمه الأرض، ولا هو يعاشرها أصلاً، (كما لو كان تحقيقاً لفكرة التابو والتحريم ضد الرغبة)، إضافة إلى أن النص: (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل) يلتقى مع ما سبق وافترضناه فى اقتران ظهور (آنليل) على سائر الآلهة،أو على الأب (آن)، ببداية سلطة الحاكم الكاهن فى

---

[١] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٦٣.

المشترك المعبدى، (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل).

وفيما يتعلق بخلق الإنسان هناك أسطورة أخرى تقول: إن الأرض أنجبت الزرع والحيوان والإنسان،خرجوا من طينها كالدود والحشيش، ثم تصور هؤلاء البشر تصويرا يكاد يعطيها مشروعية علمية فتقول:

البشر الأول لم يعرفوا أكل الخبز بعد
يسيروا على أيديهم وأرجلهم
كالخراف يعلفون الحشائش
ومن القنوات كانوا يشربون الماء آنذاك
فى المكان الذى كانت فيه الآلهة فى معبدها
التل المقدس.. المعبد..
المكان الذى تأكل فيه الآلهة الخبز[(١)]

(فهل كان هذا النص تسجيلا لقصة بشر تطوروا وسط بشر ظلوا على حالتهم الحيوانية؟ ربما).

لكن هناك نصا آخر، يروى قصة أخرى لخلق الإنسان وجد منقوشا على لوحين مكررين لنص واحد، جاء أحدهما من مدينة (نفر) وهو حاليا فى جامعة بنسلفانيا، والآخر محفوظ فى متحف

[(١)] د. فوزي رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص٢١.

اللوفر، يقول:

الأم الأولى نمو تأتى إلى آنكى
(اتفقنا على ترجمة آنكى:السائل المخصب آبسو)
وتخاطبه: قم يا بنى من فراشك
واعمل ما هو حكيم لائق
اصنع عبيدا للآلهة
وعساهم أن يضاعفوا من عددهم
فتدبر آنكى الأمر وقال لأمه نمو:
يا أماه: إن المخلوق الذى نطقت باسمه موجود
فاربطى عليه صورة الآلهة
اعجنى لب الطين الموجود فوق مياه العمق
(اتفقنا أن ماء العمق آبسو السائل المخصب)
واجعلى الصانعين المهرة يكثفون الطين
وعليك أنت أن توجدى له الأعضاء والجوارح
وستعمل ننماه (الأرض الأم أو السيدة الأم)
الأم الإلهة
من فوق يديك
وستقوم بجانبك إلهة الولادة
(يبدوا أنها ننماه ذاتها)
وستربط ننماه عليه صورة الآلهة

إنه الإنسان[١].

ونفهم من هذا النص أن الذى يجب أن ينسب إليه فعل خلق الإنسان هو الإله (آنكى)، بوصفه سائل الخصب أو منى (آن) مشخصاً فى إله وأنه لم يفعل أكثر من تلقيح طين الأرض (اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق)، وأفضل ترجمتها (اعجني له الطين وسيكون فوقه آبسو المنى) خاصة أنه رغم طلب الأم الإلهة من (آنكى) القيام بخلق الإنسان، لا نجد له دوراً سوى ذلك، لأن الأم الأرض (ننماه)، الوالدة (ننتو)، هى التى عملت الطين (وستعمل ننماه الأم الإلهة من فوق يديك)، ثم إنها هى التى صورته فى هيئة الإنسان على شبه الآلهة (فاربطى عليه صورة الآلهة)، ومن هنا خلقت الآلهة الإنسان على شبهها ومثالها، ويعقب (كريمر)، على ترجمته للنص السالف بقوله: «إن المفكرين السومريين.. اعتقدوا اعتقاداً جازما بأن الإنسان صنع من طين، وأنه خلق من أجل غرض واحد فقط، ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها بتزويدها بالطعام والشراب والمسكن ليتوافر لها وقت الفراغ لأعمالها الإلهية»[٢].

ولنلاحظ هنا كيف استطاع هؤلاء المفكرون، وهم الكهان، وهم الحاكمون، أن يحققوا فائض إنتاج ملائم بين أيديهم، مقابل تفرغهم لإدارة المشترك المعبدى، والاتصال بالآلهة، باعتبار ذلك مسألة

---

[١] كريمر: السومريون...، سبق ذكره، ص١٩٩.

[٢] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٩١.

قدسية تتمثل فى تزويد الآلهة بالطعام والشراب والمسكن، أو بالقرابين تدخل من فائض إنتاج الأفراد إلى ملكية خاصة بالآلهة والكهنة، إضافة إلى المسكن الفاخر للآلهة(المعبد)، الذى كان فى واقعة قصرا سكنيا وإداريا للكهنة.

وقد حاول (بوتيرو) تعليل إصرار أهل سومر على فكرة خلق الإنسان من مادة الطين بالذات، بقوله: «إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل، يعتبر صورة طبيعية جدا، فى بلد يلعب فيه الفخار دورا كبيرا، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخارى بشكل إنسان، عملا منتشرا بصورة واسعة»[١].

أما نحن فنعتقد ببساطة، أنه كان يكفى للسومرى أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر، نبات، ديدان... الخ) حتى تتنشأ لديه قناعة أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة عموما،ولما لم يكن لديه شاهد عيانى على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة، كالزرع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخارى لأجداده الأوائل.

وبالبحث عن التسمية التى أطلقها السومريون على هذا المخلوق الطينى نجد الاسم (إنسى ANZI)وهى فى تحليلنا تعنى مثيل أو شبيه

---

[١] بوتيرو: سبق ذكره، ص١١٠.

الإله (آن)، باعتبار (سى ZI) تعنى الشبيه أو الحقيقى،ويقول (حسن ظاظا) إن الاسم (آنسى) قد تخلف فى كل اللغات السامية للدلالة على الإنسان، وأن مؤنثه كان يتأتى بقلب السين إلى (ش) فيصبح (آنشى)، أو إلى (ت) فيصبح (أنتى) أو (ث) فيصبح (أنثى) كما فى العربية وجمعها (إناث)[1]،لكن (كريمر) يشير إلى أن الاسم (إنسى) كان اللقب الذى يعرف به ملوك المدن السومرية[2]، ونعتقد أنه لا خلاف، فالأمر راجع إلى تعظيم الملك باعتباره أباً أولاً للمشترك المدينى الذى كانت تدين فيه كل عشيرة بالعبادة لأبيها، الذى تمثل بتجميع العشائر فى مدينة فى شخص الملك، فأصبح هو أب الجميع الأول (إنسى) وكان يلقب أيضاً باللقب (لوجل)[3]،أى الرجل العظيم، أو ذا الجلال، ونظنها الأصل فى الكلمة الدالة على مذكر الإنسان (رجل).

لكنا نعتقد أن مؤنث الكلمة (إنسى) السومرية، ليس (أنثى) أو (أنتى)، لأن (إنسى) مركبة من ملصقين هما (آن = الإله أو السيد + سى)، وبما أن مؤنث (آن = سيد) هو (نن = سيدة)، فإن مؤنث (إنسى) يكون (نن سى) أو (ننسى)، وبحسبان ما أشار إليه (ظاظا) يسهل أن تتحول (ننسى) إلى (ننشى) و(ننتى) بشكل خاص، وقد ورد

---

(1) د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، مطبعة المصرى، الإسكندرية، ١٩٧١، ص١١.

(2) كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤٦.

(3) ظاظا: سبق ذكره، ص٣٤.

يسهل أن تتحول (ننسى) إلى (ننشى) و(ننتى) بشكل خاص، وقد ورد الاسم (ننتى) فى أسطورة ترجمها (كريمر)، مما يؤكد استخلاصنا هذا، وقد جاء هذا الاسم فى أسطورة تقول إن (نن تى) إلهة خلقت أصلا لغرض خاص جدا، هو تمريض وعلاج الإله (آنكى) عندما أصابه المرض فى واحد من أضلاعه، والضلع بالسومرية هو (تى)، لذلك سميت الإلهة الممرضة (نن تى) أى (سيدة الضلع)، ويعقب (كريمر) على ذلك تعقيباً يكاد يوعز لنا فيه بحل أحجية خلق حواء من ضلع آدم، التى وردت فى الديانات السامية، حتى يكاد يقنعنا أن نصوص سفر التكوين فى التوراة، قد أخذت ما جاء فى الأسطورة السومرية بشكل شائه، بعد مرور زمان نُسى معه الأصل، ولم يبق سوى سيدة الضلع أو السيدة الضلع، فخالوا الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول، وسقط كاتب هذا الجزء من التوراة،فى الشرك السومرى، ففسر حواء التى تدل على الأنثى الأولى فى اللغات السامية بأنها مأخوذة من «تلك السيدة التى تحى أى التى تسبب الحياة»[1]. وهو ما تعنيه أيضاً الكلمة (تى)، لأن (تى) تدل على الضلع عندما تكون اسماً، لكنها كفعل تعنى (أحيا)، أو جعله (يحيا) ويصبح اسم (نن تى) أو (ننتى)، السيدة التى تحيى[2].

---

[1] تقول التوراة: «ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي، تكوين٣-٢٠».

[2] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٣،٢٤٤.

وأصر كريمر على إفهامنا أن التوراة قد أحدثت خلطاً ناتجاً عن سوء فهم للتراث السومرى، بين (ننتى) كسيدة للضلع مهمتها شفاء ضلع (آنكى)، وبين (ننتى) بمعنى السيدة التى تحيى،لأن (تى) تعنى (أحيا).

ومع حفظنا لثقل (كريمر) وتقديرنا له كمصدر غزير للسومريات، فنحن ننحو منحى آخر فى تصورنا لما حدث، فإذا افترضنا أنه قد حدث خلط فعلاً، فقد كان فى الكلمة السامية (حواء) من الفعل السامى (أحيا) وهو فعل له اشتقاقات عدة، منها(حوا) أى استدار حول الشيء و احتواه، كحمل الأم لطفلها فى استدارة بطنها ،و (حيا)و هو الفرج و من هنا يصبح الفعل (أحيا) ،هو إخراج الحياة المحوية فى البطن من الحيا،وبعد أن تعاملنا مع الاسم (إن تى) كمؤنث لـ(آنسى) و انتهينا إلى وجوب تصحيحه إلى (نن تى) ،فإن قمنا بالاشتقاق منها على الطريقة السامية فى (حواء) من (حيا)، فستصبح (ننتى) هى (ننتو) ،وهو الاسم الذى عرفناه لإلهة الولادة السومرية و ترجمته الحرفية (السيدة التى تلد) .

أما لو افترضنا أنه لم يحدث هذا الخلط فى التوراة، فسيكون هناك خطأ ما فى ترجمة الأسطورة الخاصة بخلق ممرضة ضلع (آنكى)، ونأسف لأن أصولها ليست بين أيدينا ،وفى مثل هذه الحالة كان يمكننا افتراض أن (ننتى) كانت أنثى خلقت من ضلع الذكر، وليكن (آنكى) كما قال (كريمر) وليكن، (آنسى) بالفرض. وأنه كان يعانى من مرض فى ضلعه، كان انتزاعه منه كفيلاً بشفائه ، وعليه

لا تكون (ننتى) إلهة وليست أنثى بشرية، فهو ما لا يتناقض مع قوانين التطور الفكرى والاجتماعى، التى عبدت الأسلاف كآلهة ذكوراً وإناثاً.

ولا يفوتنا أن نشير إلى اختصاص الأم الأولى بلقب آخر فى السومرية هو (مونوس)،التي هي فيما نظن الأصل فى الكلمة السامية (مومس) التى انحدرت إلى العربية (مومس)، للدلالة على المرأة التى لا تعرف رجلاً واحداً كما لو كان فى اللغة خاصية الحفريات ، فاحتفظت لنا بكلمة ذات معنى حفري سحيق،لتشير إلى عصر كانت فيه المرأة مشاعاً فى المجتمع الأمومى أو النظام الغابر.

لكن أغرب ما فى علاقة الفكر الدينى السومرى بالفكر الدينى السامى، ولعله ليس أغرب إنما أقرب إلى طبيعة الأمور،هو ذلك الختم الأسطواني الذى كشف عنه مؤخراً ،ويصور ذكراً وأنثى، بينهما نخلة، وخلف الأنثى تدلت حية، رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد هذه الأنثى يدها فى شكل دعوة للذكر الجالس قبالتها، ليتناول من ثمار النخلة،ولنتذكر الآن الارتباط اللغوى بين الحية، و بين حيا الأنثى (فرجها)، وبين الحياة، (فالأنثى مصدر للمواليد، للحياة) ، وبين التسمية (حواء) ويبدو أن هذا الارتباط المتوارث، كان ناتج تصور الأقدمين أن الحية دائمة التجدد، ودائمة الحياة،عن طريق مشاهدتهم لها تتسلخ من جلودها العتيقة لتخرج بجلود جديدة زاهية ، فى حركة تشبه خروج الجنين من حيا الأم ، و لعل ذلك يفسر لنا الارتباط العجيب فى العقل القديم ، بين المرأة كمصدر

للحياة باستمرار ، و بين الحية التى تتجدد و تولد دائمـــا بانســـلاخها من جلدها ، و بين تصور كليهما (المرأة – الحية) كمصدر للخبـــث و الأذى؟!.

الخطيئة والسقوط

رغم أنه كان للآلهة معابدها، التى كانت فى الوقت نفسه مســكنا لها، ومركزا إداريا للمشترك المعبدى، ومحل إقامة لكبـــير الكهنـــة وبطانته، أطلق عليها اسم (إى E)،فإن هذه المعابد لم تكـــن مقـــارا دائمة للآلهة، قدر ما كانت بقاعا أرضية مقدسة، تلتقى فيـــها الآلهـــة بكهنتها، لتفسير النذر أو قبول القرابين، أو لإصدار قرارات تتعلـــق بأمور مستعجلة، بينما كان مقرها الدائم كما جاء فى الأساطير هـــو جبل السماء والأرض. أما أين هذا الجبل؟ فهو ما لا تجيـــب عنـــه المدونات الموجودة بشكل واضح، لكن يمكن الاستنتاج من مجموعـــة وثائق وأساطير، أنه كان فى مكان يدعـــى (دلمـــون DILMOUN) حيث وردت كمكان تجرى فيه أحداث عظام، بين الآلهة الســـومرية، فظهرت (دلمون) كما لو كانت مسكنا دائما للآلهة، وفـــى مجموعـــة أخرى من الأساطير تبدو (دلمون)كما لو كانت مسكنا وموطنا للإلـــه خالق البشر (آنكى) أو (آنسى)، إذا اعتبرناه أبا البشـــر الأول، وأنـــه أنجب هناك عددا من الآلهة[1].

---

[1] كريمر: السومريون...، سبق ذكره، ص٤٠٧.

وننفرد نحن فى بحثنا هذا بزعم يدعمه ما تحت أيدينا من وثائق، هو أن (دلمون) كانت المكان الذى قامت فيه الآلهة بخلق أول بشر على الأرض، فقد وصفت هذه المآثر (دلمون) بأنها:

الأرض دلمون هى الموطن الطاهر
الأرض دلمون هى المحل النظيف
الأرض دلمون هى الأرض المشرقة
هو ذلك الذى اضطجع وحده فى دلمون
المحل الذى اضطجع فيه آنكى مع
زوجته[١]

* * *

فى دلمون لا ينعق الغراب الأسود..
ولا يصيح طائر الأندو (الحدأة) ولا يصرخ
ولا يفترس الأسد
والذئب لا يفترس الحمل
ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذى يفترس الجداء
ولم يعرفوا (خرم بالنص) الذى يفترس الغلة
ولم توجد الأرملة
والطير فى الأعالى (خرم بالنص)..

---

[١] كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٥.

والحمامة لا يحنى رأسها
وما من أرمد يشتكى ويقول عينى مريضة
ولا مصدوع يقول فى رأسى مرض الصداع(١)
وامرأة دلمون العجوز لا تشكو من الشيخوخة
ورجل دلمون الشيخ لا يتبرم من كبر السن(٢).

أما السر فى كون (دلمون)، أخذت شكل المدينة السعيدة الفاضلة فيرجع إلى حلول الإله (آنكى) فيها(٣)، وتقول أسطورة (آنكى وننهور ساج ENKI & NIN HURSAG) التى بدأت بوصف (دلمون) كموطن طاهر نظيف مشرق، يسوده السلام والأمن والطمأنينة: إن الإله (آنكى) حل فيها، وأمر الإله (أوتو) أن يملأها بالماء العذب، لكونها كانت تفتقده، وعند ذلك أصبحت:

مدينتها تشرب الماء الوفير
دلمون تشرب ماء الرخاء
آبارها ذات الماء المر
انظر
تراها أصبحت مياهها عذبة
حقولها ومزارعها أنتجت الغلة والقمح

---

(١) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٤.
(٢) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦.
(٣) د. زايد: سبق ذكره، ص١١٨.

مدينتها، انظر، تراها
وقد أصبحت دارا للشواطئ
ومرسى للأرض[1].

لكن حتى يتأتى لهذه الأرض زرع، كان لابد من إلهة للزرع والنبات جاءت عبر عدة عمليات خلق، فأولا يقوم الإله (آنكى) بوصفه المخصب بتخصيب الإلهة (ننهور ساج)، فتحمل لمدة تسعة أيام، وتضع إلهة الزرع[2]، وأتصور إلهة النبات هذه هى حبة القمح، أو أول حبة قمح، فاسمها (نن شال)، و(شال) كلمة تدل على الفرج الأنثوى كمصدر للحياة فهى السيدة الفرج أو الإلهة الفرج، مع ملاحظة التشابه بين حبة القمح المفلوقة وبين الفرج الأنثوى، وما قد يخطر على بال القدماء، عندما يشاهدون فلقة حبة القمح تخرج حياة جديدة، بعد ريها بماء الخصب كما ينفلق الفرج الأنثوى عن ميلاد جديد بعد ريه بماء الذكر.

إلا أن الأسطورة تشير إلى خلق ثمان نباتات أخرى خلقتها الأم (ننهور ساج) فأكلها (آنكى)، فغضبت عليه (ننهور ساج) غضباً شديداً، حتى أنها قامت تصب عليه اللعنات قائلة: «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»، وهنا أخذ المرض يشتد بـ(آنكى) وبدأ

---

(1) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦،٨٧.
(2) كريمر: الموضع نفسه.

يتدهور ويذبل[1].

ولنقف الآن قليلاً مع ما جاء فى هذه الأسطورة، التى أراها أول تسجيل حقيقى اكتشف حتى الآن لقصة الخطيئة الأولى!! فنتساءل: لماذا غضبت (ننهور ساج) كل هذا الغضب على (آنكى) لو لم تكن قد أنذرته سلفاً،وحرمت عليه هذه الثمار قبلاً، وأعلمته بذلك إعلاماً واضحاً؟ ومع ملاحظة أن النص به خروم وتشوهات كثيرة أدت لفقد كثير من الأبيات والمضامين! إذن من المنطقى أن يكون هناك علم مسبق أحيط به (آنكى) برغبة (ننهور ساج) عدم المساس بالنباتات الثمانية،وعندما عصى الأمر كان عقابه الموت « لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت» ويبقى التساؤل: كيف يمكن لإله مفترض فيه الخلود، أن يمرض ويموت؟! من هنا نفهم أن الأسطورة اعتبرت (آنكى) الأب الأول، وطبيعى أن يتصف بالألوهية بحسبان عبادة الأب الأول، بخاصة ما جاء فى بداية الأسطورة بعد تقريظ دلمون كأرض طهور نظيفة، وفجأة وبلا مقدمات تقول: «هو ذلك الذى اضطجع وحده فى دلمون»، إنها صورة تلقى بنا فى مرآة الزمان الآتى، عند ظهور التوراة وما قالته عن أب للبشر يعيش وحيداً فى مكان يسمى الجنة، ثم تقول أسطورتنا عن (دلمون) «إنها المحل الذى اضجع فيه آنكى مع زوجته» فمن كانت هذه الزوجة؟

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٦٣.

هل قصدت الأسطورة بالزوجة الإلهة (ننهور ساج)؟ ربما؛ لكن الأحداث التى تلت مرض (آنكى) تشير إلى منحى آخر، رغم عدم النص عليه فى نصنا هذا المهترئ، لأن مرض (آنكى) كان فى واحد من أضلاعه، واتفقنا أن شفاءه تم بنزع الضلع المريض ليصبح هذا الضلع هو(نن تى) سيدة الضلع، فكان (آنكى) بذلك إلهاً معرضاً للموت بسبب خطيئته، وهو ما يتعارض مع صفة الخلود الإلهية.وكان يجمع فى ذاته الذكورة والأنوثة معا،فهو ذكر خلقت من ضلعه أنثى ليتحول الخلود الفردى الذاتى بالانقسام إلي خلود للنوع عبر تناسل الذكر والأنثى، وعليه تتضح عدة حقائق هى:

* كان للآلهة دار طهارة وسلام للمقام هى (دلمون).
* فى دلمون حدثت أول عملية خلق للنبات عن طريق تخصيب (آنكى) لـ(ننهور ساج) لتنجب إلهة النبات.
* (ننهور ساج) تخلق بمفردها ثمانية نباتات محرمة.
* يأكل (آنكى) النبات المحرم فتحيق به اللعنة الربانية فيمرض بضلعه ويحتضر، لولا نزع هذا الضلع المريض منه، وتخلق منه سيدة الضلع أولى إناث البشرية.
* يفقد آنكى بذلك ألوهيته كسائل مخصب كونى،ويتحول خلوده الإلهى إلى خلود عبر التناسل، وهنا فى رأيى تكمن العلاقة بين (آنكى) وبين (إنسى) فتحول (آنكى) إلى (إنسى) مهمته التخصيب المستمر لسيدة الضلع (نن تى) أو (نن تو) أو (سيدة الولادة) أو (ماما) أو (مامى) أو (أماه).

ولا يبقى لكى تترتب المسألة بشكل أفضل سوى أن نستكملها بالختم الاسطوانى الذى صور ذكراً وأنثى يأكلان من ثمار نخلة، بإيعاز من الحية (والحية رمز جنسى) لنسد به الثغرات الناقصة فى النص، ليصبح أكل الثمرة المحرمة هو رمز لممارسة الجنس مع أخرى غير (ننهور ساج)، مما استوجب غضبها ولعنتها، ولم تكن هذه الأخرى سوى (نن تى) أو (ننتو) أو (أنتى) أو الأنثى الأم الوالدة الأولى، بينما أصبح آنكى هو (إنسى) صاحب المنى المقدس، بينما تحولت ثمار النخلة (التمر) (وهى رمز نن تى شافية المرض التى مارس معها الجنس آنكى، ولنلحظ نواة التمر المفلوقة وحبة القمح المفلوقة)، لتصبح ثمراً مقدساً وشافياً ومثيراً للغلمة والشهوة، وسبباً لمزيد من منى الرجل وخصبه ــ حتى اليوم ــ بل نعتقد أن كلمة (تمر) لغة، هى التى أصبحت بعد ذلك (ثمر)، لتدل ــ على وجه الإطلاق ــ على جميع أنواع الثمار بمعنى أنها كانت الأصل الأول للثمر عموماً وللخصب عموماً، ومثلها القمح وكل حب مفلوق، (ولنلحظ العلاقة اللغوية بين الحَبْ والحُبْ)، فكان التمر والحبوب الثمارالأم الأولى فى (دلمون) إلى جوار الأب الأول (آنكى) أو (إنسى) والأم الأولى (نن تى) أو (أنثى).

وبما أن (دلمون) يشار إليها فى الأساطير السومرية كمركز إلهى خالد يخالف دنيا السومريين فى الرافدين، فقد بات واضحاً أن (آنكى) الإله الذى فقد الخلود، و(نن تى) زوجته، أو الإنسى والأنثى كأبوين للبشر، قد غادرا هذا المقر الإلهى من زمان بعيد، ليعيشا عيشة إنسانية، بينما ظلت (دلمون) موطن الآلهة الخالدة فى

الأساطير.

العالم التحت أرضى:

إذا كان آنكى إلهاً فقد الخلود وأصبح (إنسى)، فهل كان ممكناً فى العقائد السومرية أن يتحول الإنسان إلى إله؟ أو بصيغة أخرى، هل كان ممكنا فى الاعتقاد السومرى أن يحصل البشر على الخلود الدائم؟

يقول الباحثون أنه لم يخطر قط للسومريين، ولا للشعوب السامية فى الرافدين أو باقى الهلال الخصيب، حتى قبل زمن المسيح بقليل، أنه يمكن للإنسان أن يخلد، وقد قررت ملحمة جلجامش ذلك صراحة بتأكيدها: أنه «عندما خلقت الآلهة الإنسان، قدرت عليه الموت، واحتفظت لنفسها بالخلود»[1]، وهنا الفارق بين الإنسان والإله، فالإله خالد والبشر فان إلا أن هناك قبساً إلهياً ظل فى البشرية، هو المنى الذكرى والفرج الأنثوى، الذى يعود إلى الأب الأول (آنكى) والأم الأولى (ننتى) ، أول رعيل إلهى تحول إلى بشر، فجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع البشرية.

---

[1] ن.ك. ساندرس: ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، ١٩٧٠، القاهرة، ص١٠٢.

وقد عبر السومريون عن قناعتهم باستحالة خلود البشر فى مجموعة أخرى من الأساطير، منها أسطورة (جلجامش وأرض الأحياء) وتقول: إن (جلجامش GELGAMISH) كان يبحث عن نبات الحياة، فالخلود هنا مصدره مادى فى شكل مادة إذا أكلها الفانى خلد، وهى ذات الفكرة التى قالت بها التوراة، حول شجرة الحياة فى الجنة (التكوين٢ـ٩:٢٢)وكى يحصل جلجامش على ثمرة الخلود، رحل إلى دلمون بالذات، فهى مقر الآلهة الخالدة، ليبحث هناك عن بغيته وفعلاً وجد الشجرة، واقتطف من ثمرها السحرى، وعند عودته:

رأى جلجامش بركة ماء
نزل فيها، استحم بمائها
تشممت الحية رائحة النبتة
تسللت،صعدت من الماء
خطفتها
وفيما هى عائدة
تجدد جلدها
وهنا جلس جلجامش وبكى[1]

حقيقة، إن النص بليغ الدلالة، يلخص ما ذهبنا إليه، ويؤكده

[1] السواح: سبق ذكره، ص٢١٤.

بوفاء واضح جلى، فها هى شجرة الخلد فى (دلمون) مسكن الآلهـة، وموطن آباء البشر الأوائل، تتعرض مرة أخرى لمحاولـة السطو عليها، لكن الحية، والحية بالذات دون جميع الكائنات، رمـز الحيا (الفرج، الجنس) تتسلل مرة ثانية لتسلب الساعى إلى الخلـد ثمـرة مسعاه، لتنعم به دونه، وتخلد بانسلاخها من جلدهـا كلمـا آن أوان موتها، ولا يكتفى السومرى بهذه الرمزية الواضحـة إنمـا يزيدنـا إيضاحاً، فيفقد (جلجامش) الخلود فى بئر أو بركة مـاء والبـئر أو البركة باستدارتها رمز واضح آخر للفرج، إنها قصة تدفعنـا ــ أو تكاد ــ للظن أن الوعى والشعور كان مسألة مبكرة جدا فى تـاريخ نشوء الحياة على الأرض فاحتفظ الكائن إلى اليوم فى عقلـه بكافـة مراحل تطوره الأولى، منذ كان كياناً دقيقاً، يستمر فى الوجود عـبر عمليات الانقسام الذاتى، حتى تخصصت فيـه أعضـاء للذكـورة، وأخرى للأنوثة، ثم الانتقال إلى انفصال الذكر عن الأنثـى (الضلـع عن آنكى) لينتهى عهد الخلود الفردى ليبدأ عهد الخلـود الجمـاعى للنوع، عبر التناسل، الذى استدعى التجمـع الإجبـارى والتجـاور لممارسة الجنس، حفاظاً على النوع واستمراره،مما أدى بـالضرورة إلى نشوء التجمع الإنسانى.

ولعلى لا أغالى إن قلت: إن السومرى القديم، حاول جـاهداً ــ بلغته البدائية ــأن يبلغنا بما بقى فى اللاشعور الجمعى من ذكريـات سحيقة فى القدم فوضع أساطير أخرى مثل أسطورة معـراج (آدابـا ADABA) إلى السماء، حيث دعاه هناك إله السماء وأكرم وفادتـه، فدعاه إلى مائدة تحوى طعام الخلد لكن (آنكى) كان أسبق مـن إلـه

السماء، فأوعز إلى (آدابا) ألا يتناول منها شيئاً فيرفض (آدابا) الوليمة الإلهية، ويخسر الخلد[1]، فهل بعد هذا بلاغة في محاولة السومريين تبليغنا.

فقط، إنسان واحد فقط، رفعه مجد عمله إلى رتبة الألوهية، ونال الخلد وحتى يناله فعلاً تم نقله إلى (دلمون) دار الخلود، ذاك هو بطل أسطورة الطوفان، الذى أنقذ بذرة الحياة على الأرض، فى فلك أسطورى[2]، فكان أن مُنح الحياة الخالدة، أو نصيباً:

زيو سودرا الملك
سجد أمام آن وآنليل
فمنحاه حياة كحياة الآلهة
وجاءا إليه بأنفاس خالدة
كأنفاس الآلهة
وبأمر آن وآنليل
أمام الملك زيو سودرا

---

[1] موسكاتي: سبق ذكره، ص٩٠. انظر أيضاً: ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران،الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٢، ١٩٦١، القاهرة، مج١، ج٢، ص٣٠.

[2] للمزيد ارجع إلى موضوعنا: من الطوفان السومرى إلى الطوفان النوحى، مجلة آفاق عربية، عدد٩، ١٩٨٣، بغداد.

الذى يحفظ أسماء (خرم بالنص)
والبشر
فى جبل العبور، جبل (دلمون)
حيث تطلع الشمس[1]

ويبدو ان بطل الطوفان (زيوسودرا ZIUSUDRA) كان شخصا حقيقيا، استطاع أن ينقذ فى قاربه إبان كارثة فيضان عاتى، أفراد أسرته وآخرين، فكان مجد عمله كفيلا برفعه إلى رتبة الألوهية وكانت الأعمال الفدائية والمجيدة ـ فيما نرى ـ هى السبب الأساسى فى تأليه الوالدين والأسلاف، فى غابر الأزمان، وسبق أن أفضنا فى التدليل على وجهة نظرنا هذه فى اثنين من أهم أعمالنا المنشورة، الأول كان بعنوان (الأضاحى والقرابين، الجذور الاجتماعية)، والثانى (القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث)[2].

ومن ثم اكتسب (زيوسودرا) الألوهية والخلود،بعد أن خسر حياته فيما يبدو إبان محاولة إنقاذ بنيه، وقد أخذ الساميون بهذه

---

[1] س. لامبرج كارلوفسكى: دلمون مدخل إلى الخلود، ترجمة كامل مصطفى اللحام، مجلة الثقافة العالمية، وزارة الإعلام الكويتية، مارس ١٩٨٣، ص١٠٤.

[2] سيد القمنى: (الأضاحى والقرابين، الجذور الاجتماعية)، فكر للدراسات والأبحاث، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة عدد١١، و(القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث) مجلة الكرمل، نيقوسيا، عدد٢٦.

الأسطورة لكن البطل حمل اسم (أوتنابشتيم UTNABESHTEM) و(إثرا خاسيس ETHRA KHASIS) و(تجنوح TAGNOAH)، لكن الأسطورة المصاغة لبطولة (تجنوح)، دخلتها عناصر من قصة الخلق، فقالت إن (تجنوح) لم يستمر فى هذه الحياة الخالدة، بعد أن خسرها، لما أكل من فاكهة محرمة[1]، ولنلاحظ القرب الزمانى لأسطورة (تجنوح) من وقت ظهور التوراة، حيث اختصر فيها (تجنوح) إلى (نوح)، الذى تقول التوراة إنه عاش عمراً مديداً بلغ حوالى تسعمائة وخمسين عاماً، وهو يكاد يكون ترديداً لمعنى الخلد الألفى، الذى ينقطع فجأة بالأكل من الثمرة المحرمة فى القصة الأصلية (تجنوح) (تكوين٦-٩).

وقد استند الباحثون إلى مثل هذه الأساطير ليقطعوا بأن السومرى القديم لم يعتقد فى حياة خالدة من بعد الموت، وأن الساميين قد تابعوهم فى ذلك، وهذا فى رأينا فهم خاطئ للمسألة من أساسها، لأن الخلود الذى قصدته تلك الأساطير كان مطلباً لديمومة الحياة فى هذه الدنيا، ورفض السومريون الاعتقاد فى أن إمكانية تحقق ذلك أمر منطقى وعقلانى، رغم رغبتهم الواضحة فيه، أما الاعتقاد فى حياة أخرى بعد الموت فى عالم آخر، فهو أمر مقرر لدى السومريين ولا يجادل بشأنه مكابر، ولا يقبل شكاً أو جدلاً، لكنه

---

[1] ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣، ١٩٦١، مج١، ج٢، ص٣١.

لم يأخذ خطه التطورى الذى أخذه عنـــد المصريين، فلم يعتقد السومريون بعودة الموتى فى شكل بعث جديد ولا فى ثواب أو عقاب، وكل ما فى الأمر أن الموتى يرحلون جميعاً إلى عالم آخر، وهو فى ملحمة (جلجامش): «البيت الذى لا يعود داخله»[1]، فى عالم تحت أرضى، خالد، لكن ليس فيه ما يبهج النفس.

وأطلق السومريون على عالمهم التحت أرضى كلمة (كور KUR)، وكانت هذه الكلمة فى الأصل، تدل على وحش تخيلوا مسكنه تحت سطح الأرض، اختطف إلهة أنثى أرضية هى (إيرشكيجال)، وأخذها لتعيش معه كزوجة فى العالم التحت أرضى، وصارا هناك سيدين للعالم التحت أرضى الرهيب[2].

وأتصور أن الكلمة (كور) تحولت من دلالة على الوحش السفلى، إلى الدلالة على العالم الأسفل عموماً، نتيجة تصور أن العالم السفلى يتخطف الأحياء عن الأرض، لينزلهم موتى إلى باطنه،كمن يلتهمهم، أو أن (كور) كان يتخطفهم من الدنيا الأرضية، وبذلك يكون بداية لفكرة ملاك الموت السامى (عزرائيل).

وفى إحدى مناحات الإلهة (إنانا INANA) على حبيبها (تموز

---

(1) ساندرز: سبق ذكره، ص٩٢.

(2) السواح: سبق ذكره، ص٢٨.

DAMUZI) نجد للعالم التحت أرضى اسماً آخر هو (آدن، أو أديـــن، أو الدين EDIN) فهو عالم الدين والكلمة (EDIN)، في الأصل تعنـــى السهل[1].

وقد اهتم السومريون بالموتى، وزخرت قبورهم بالمتاع والطعام والشراب.ويبدو أنه كان بقصد انتفاع الميت بهذا المتاع، لذلك ربمـــا اعتقدوا بعودة روح الميت بين آن وآخر من العالم التحت أرضى إلى القبر وهو ما افترضه(نجيب ميخائيل)[2] لكن ربما كان لوضع المتاع سبب آخر، وجائز أنهم اعتقدوا ببقاء الميت فى قـــبره حيـــاً لفـــترة محددة، قبل هبوطه إلى العالم التحت أرضى، مما يجعله محتاجاً فـــى هذه الأثناء للطعام والشراب.علماً أن حكام سومر قبل عهد العـــاهل (أورنامو) كانوا يصطحبون معهم عند الموت مقتنياتهم وحاشيتهم من بشر، بأن يتجرعوا السم ليهبطوا بصحبة سيدهم إلـــى عـــالم تحـــت الأرض[3].

وقد لوحظ اعتقاد السومريين أن أعظم شـــر يمكـــن أن يلحـــق بالميت هو عدم دفنه وفق تقاليد طقسية محددة، لأنه فى هذه الحالـــة سيتحول إلى روح شريرة تجوس فى الأرض تؤذى الأحياء، ويبـــدو

---

[1] د. فاضل عبد الواحد: عشتار.. سبق ذكره، ص١٦٩.
[2] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٧.
[3] كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٣.

أن هذه الفكرة صياغة كهنوتية قصد منها الكسب ليس أكثر،وهو ما يستنتج من المثل السومرى الساخر: «أغلى شيء فى لجش هو أن تموت»[1] مما يشير إلى ارتفاع أجور الكهان لممارسة عملهم فى طقس الدفن ومغالاتهم فى ذلك.

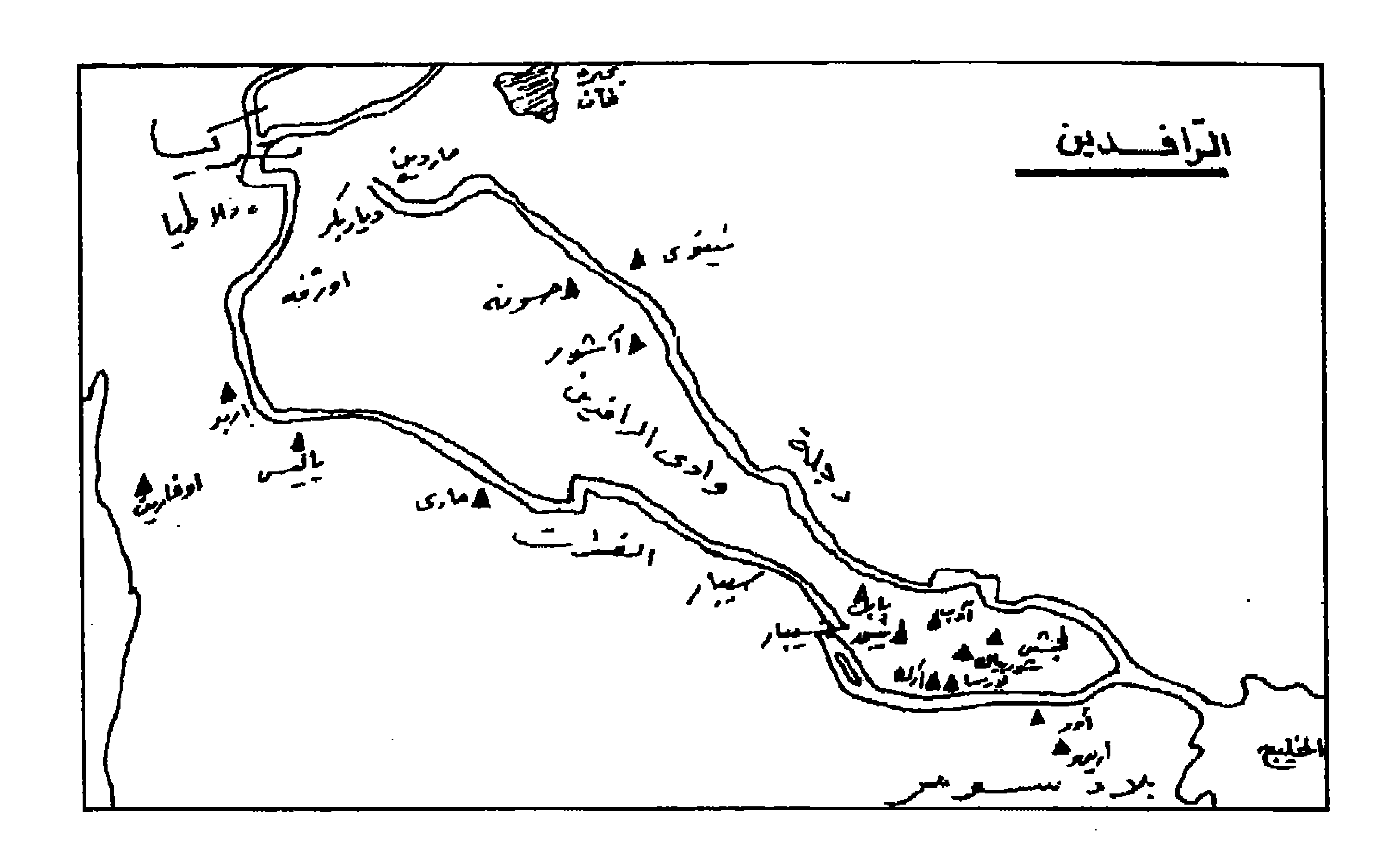
أما الحياة فى العالم التحت أرضى، المحاط بأسوار سبعة لكل منها باب واحد[2]، يحكمه (كور) وزوجته (إيرشكجال) مع معاونين من المردة والجن، فلها قواعد، أهمها العرى التام، فالميت يدخله عاريا كما ولد عاريا، وهو ما نفهمه من أسطورة (نزول إينانا إلى العالم السفلى)[3]، وإن كان سينال بدل الملابس ريشا ينبت على جسده كالطيور[4]، لكن للأسف، ليس فى هذا العالم ميزة لصالح على طالح، فالكل فيه فى الرغام والطين والظلام الأبدى سواسية الرفيع فيه كالوضيع[5].

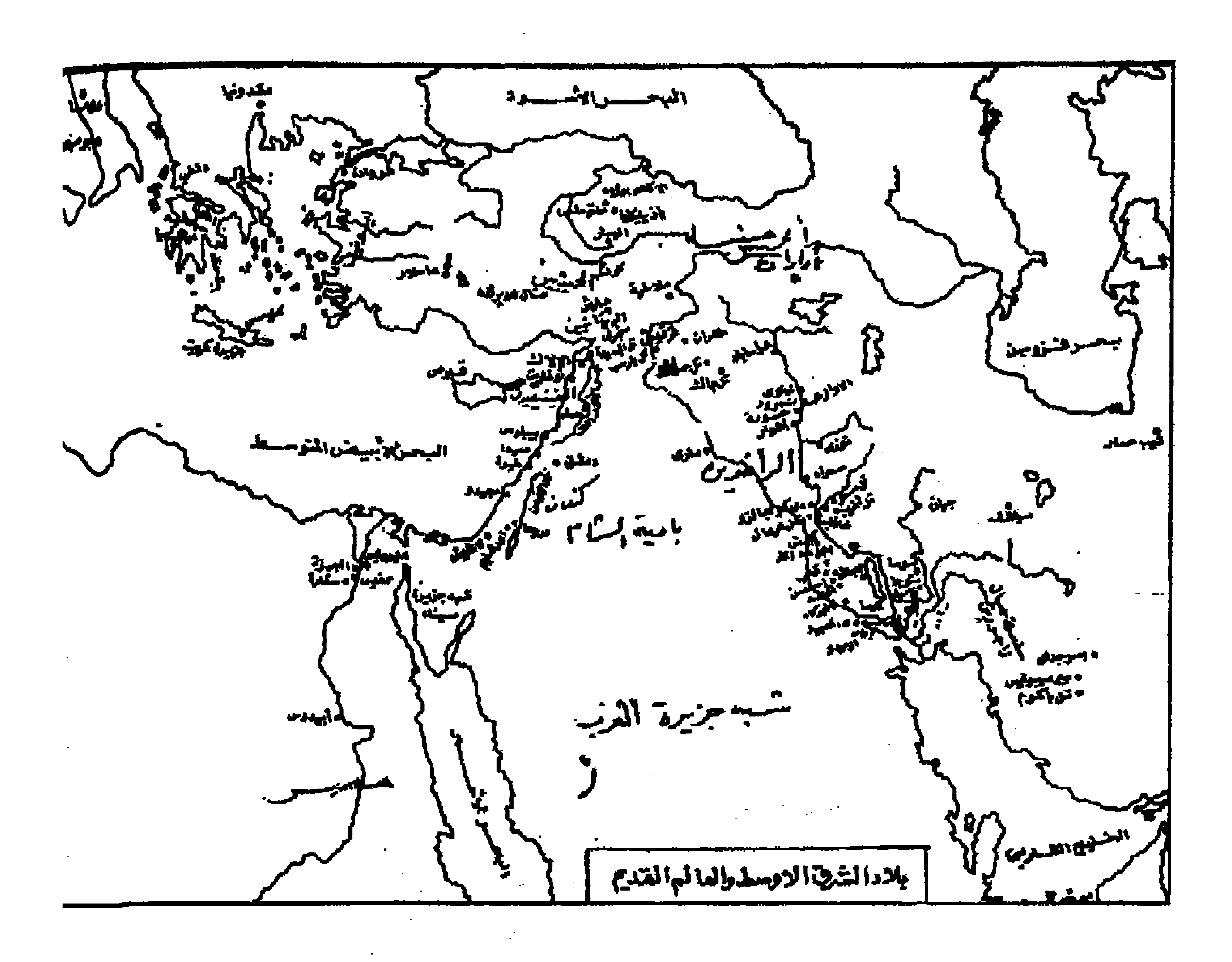
(١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨.
(٢) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٨.
(٣) كريمر: الموضع نفسه.
(٤) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨.
(٥) جيمس هنرى برستد: انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، القاهرة، ص١٧٨.

وهكذا يتضح أنه ليس ثمة علاقة محددة بين هذا العالم التحـــت أرضى وبين عالم الآلهة الخالد الدلمونى، وإن صفـــة الأبديـــة فـــى كليهما لا تعنى أبداً وجود قاسم مشترك بينهما، بل إنه ليس هناك أيـة علاقة بين صنفىّ الآلهة الدلمونية وبين الآلهة التحت أرضية.

ملحوظة: المصادر: لويد تشـــايلد، شيســنو، غــود وليبيــه، التكريتـــى، فرانكفورت: ..Royaut e و ..The Birth أخذناها نقلا عـــن: د. عبــد الرضا الطعان في كتابه: الفكر السياسي للعراق القديـــم، وزارة الثقافــة والإعلام، بغداد، ١٩٨١،والكتاب ذو فضل لا ينكر لفـــهم أبعــاد الفكــر السياسيّ في العصر السومري.

بلاد الرافدين





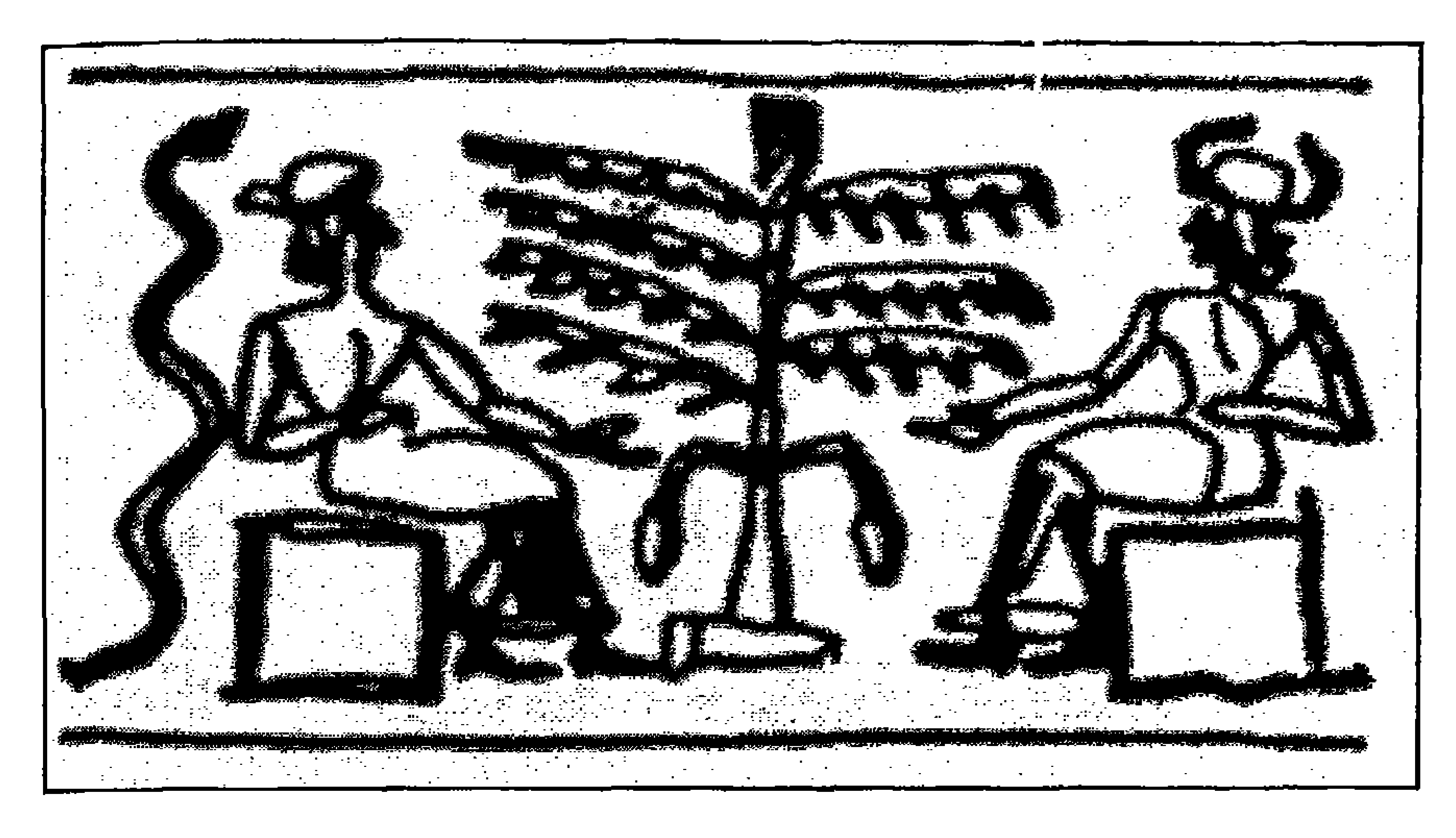
بلاد الشرق الأوسط والعالم القديم



آلهة مصرية بالرأس الطوطمى



آلهة رافدية بجسد الإنسان ورأسه وإن
غلب على الرأس نوع من التجريد
إمعاناً فى الغموض والتغييب



ختم أسطواني سومري، ينتمي إلي حوالي منتصف الآلف الثالث ق.م. كائن حالياً بالمتحف البريطاني بلندن يمثل أفعى تنتصب خلف امرأة تمد يدها في شكل دعوة للرجل الجالس أمامها لتناول ثمرة من شجرة أو نخلة بينهما. ولعله من الواضح تماماً أن هذا النقش الذي سبق تدوين الكتاب المقدس بقرون طويلة يمثل قصة إيعاز الحية للذكر والأنثي الأوائل بأكل الثمرة المحرمة.

الباب الثانى

سفر التكوين البابلى

تأسيس

إذن استطاع الساميون المهاجرون، أن يصبحوا أصحاب السيادة فى كافة بقاع الهلال الخصيب (بلاد الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، حتى لم نسمع شيئاً عمن سبقهم هناك، لكنهم فيما يزعم الباحثون ــ ولنا تحفظنا ــ كانوا أول أمرهم عالة على ثقافات أصحاب المنطقة الأصليين، ثم تمثلوا هذه الثقافات، وعبدوا أربابها، ومارسوا نظمها وعاداتها وتقاليدها، وأحياناً مزجوا بين ما حملوه من لغة وثقافة فى بيئاتهم الأصلية، وبين الجديد فى المواطن الجديدة. والباحثون يؤكدون أن أهم ثقافة أثرت فى هؤلاءالمهاجرين الوافدين هى الثقافة السومرية، التى حفظت داخل التراث الدينى السامى بعد ذلك، الذى تبلور نهائياً فى الثقافة اليهودية، التى تضمها دفتا الكتاب المقدس (التوراة).

وقد أشرنا مسبقاً إلى أن أول الموجات من هذه الهجرات المتدفقة كوّنت دولة فى الرافدين،هى موجة القبائل الأكادية، التى بدأت بالاستقرار على حدود الدويلات السومرية، ثم تسللت إلى الداخل تدريجياً، وأخذ أفرادها يتقاطرون داخل المدن السومرية، ليعيشوا أول الأمر كمواطنين وافدين من الدرجة الثانية، وفى ظروف غير معروفة تمكنوا من الإمساك بزمام الأمور، بعد أن استطاع أحد أفذاذهم أن يصل فى مدارج نجاحه الوظيفى، إلى رتبة ساقى القصر الملكى فى مدينة (كيش)، ثم وثب على العرش،ليعرفه التاريخ باسم الملك (شاروكين SHARUKEN) أى الملك الشرعى أو

الصادق، وعرفته تواترات التاريخ باسم (سـرجون الأول)، الـذى تعصب لبنى جلدته الساميين، وبالاعتماد عليهم تمكن من أن يجعـل نفسه ملكاً مطلق النفوذ وأن يوحد دويلات سومر فى دولة واحـدة، هى الدولة الأكادية، التى استمرت ما يقرب من مائتى عـام (٢٣٤٠ ــ ٢١٨٠ ق.م)، التى كانت أول المراكز القوميـة المركزيـة فـى تاريخ الرافدين.

و(سرجون) هو صاحب أول قصة عن الإلقاء فى اليم، فكتـب عن نفسه سيرة كثيراً ما ترددت بعد ذلك فى سير أبطـال الملاحم الشعبية، فقد ولدته أمه خفية وخيفة لأسباب غير موضحة، ووضعتـه فى سلة من البوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت به فـى الفـرات، فاحتمله الماء، حتى انتشله فلاح اتخذه ولداً وعلمه الفلاحة، وكان كل ذلك تقديراً ربانياً حيث تدخلت العناية الإلهية فى النهاية بشكل مباشر وسافر من أجل البطل الموعود، فشملته الإلهة (عشـتار ESHTAR) برعايتها ثم بوأته ملوكية البلاد[1].

وبانهيار الدولة الأكادية استعاد السومريون قدراتهم وأقاموا لـهم دولة موحدة (العصر السومرى الثانى)، انتهت بدفقة سامية أخـرى من القبائل العمورية (أو الأمورية أو الحمورية)، الذين أسسوا دولـة بابل الأولى (١٨٨٠ ــ ١٥٩٥ق.م)، وكان أشهر ملوكها (حمورابى) صاحب القوانين المشهورة (حوالى ١٧٢٨ق.م).

---

[1] د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص٧٦.

ويتمسك الباحثون برأيهم فى أن الثقافة السومريةاستمرت تفعل فعلها بعد أن دخلت كنسيج أساسى فى ثقافة الساميين الذين استوطنوا البلاد، وتسربت إلى كافة الثقافات السامية فى جميع مواضع الهلال الخصيب، ويعلل (كريمر) ذلك بقوله:

> وجدت جميع شعوب آسيا تقريباً، كالأكديين والآشوريين والبابليين والحيثيين والكنعانيين والعيلاميين.. أن من مصلحتها استعارة الخط المسمارى، لغرض تدوين سجلاتهم وكتاباتهم الخاصة.. كانا يتطلبان تدريباً شاملاً فى اللغة والأدب السومريين، ولتحقيق هذا الهدف ــ كان المعلمون والكتاب من ذوى المعرفة، يستوردون بلا شك من الأقطار المجاورة بينما كان الكتبة المحليون يشدون الرحال إلى بلاد سومر،للحصول على تعليم خاص فى مدارسها ذات الشهرة الكبيرة، وكانت النتيجة انتشاراً واسعاً لبذور الحضارة والأدب السومريين، إن أفكار السومريين ومثلهم، كأفكارهم فى الكون واللاهوت والأخلاق ونظام التعليم،تغلغلت إلى درجة كبيرة أو قليلة

فى أفكار وكتابات جميـــع شـــعوب الشـــرق القديم..[1].

[1] كريمر: السومريون...، سبق ذكره، ص٤١٨.

دور الملك فى التكوين

استطاع (سرجون) إذن، ولأول مرة، أن يوحد مدن سومر فى دولة مركزية موحدة، يسودها عنصر سامي وافد، وكان ذلك إيذانا بتحول فوضى الفرقة إلى نظام، فى جهاز إدارى واحد صارم، وخضوع كافة السلطات الاجتماعية المتراتبة، لسلطة واحدة آمرة ناهية، تتمثل فى شخص الملك الجديد، المالك لكافة المشتركات المدينية السابقة، التى تحولت بسادتها البشر والآلهة إلى أتباع للسيد الجديد مطلق النفوذ، الذى تحول بدوره بالسلطة المجردة من القسر إلى سلطة باطشة، بعد أن تدهورت سلطة مجالس المشتركات الأولى وقيودها على العاهل تدريجياً نتيجة للاتساع الهائل للدولة ليمسك الملك المتحرر النفوذ بكل السلطات، وفى الدولة السرجونية، تحرر الملك تماما من نفوذ أى مجالس شعبية، وأصبح القسر والبطش الأسلوب الأسرع فى الوصول والتأثير فى البقاع المترامية الأطراف، لتحقيق مآرب الدولة الموحدة، إزاء طوارئ لا تحتمل انتظار الرأى الشعبى فى دولة واسعة، وتم تمثيل الكل فى ذات الحاكم، والإله الذى ساد بسيادة هذا الحاكم،ومن ثم أخذ الإله يتحول عن صورته الرحيمة القديمة كأب بدائى للمشترك،ليتحول إلى طاغ طغيان الملك، كلمته نافذة نفاذ كلمة الملك، عصيانها قد يدمر الدولة أو يؤخرها على المستوى الإنسانى، فهى خيانة عظمى، وعصيانها على المستوى الإلهى كفر وإثم عظيم، ومن ثم أصبحت كلمة الملك والإله واحدة، لا راد لها ولا لقضائها، فتحولت القدرة الإلهية من

الفعل بالعمل، إلى الفعل بالكلمة، وظهر لأول مرة دور الكلمة الإلهية فى التكوين الرافدى، على ما سنرى بعد قليل.

المهم أن الساميين الوافدين تركوا الآلهة السومرية على حالها لكن مع تبديل فى أسمائها إلى أسماء سامية، ومع بعض التغيير فى الأدوار والوظائف،فظل مجمع السبع مقررة المصائر قائماً وكذلك مجمع العظام الخمسين،لكن بعد أن توارى (آن) زعيم السبع مقررة المصائر، ليحل محله (إيل) أو (إل) السامى أما الأرض (كى) فأصبح (أرد ARD)، كذلك (أوتو) الشمس تم تعديله إلى (شمش)، و(نانا) القمر باعتباره الإله جميل الصورة الزين، إلى (سين)، والزهرة (إينانا) إلهة الجنس الشبقة العاشقة دوماً للعشرة والمعاشرة الجسدية، أصبحت (عشتار) من العشرة والتعشير (أى الجماع والحمل)، بينما تحول (آنليل) إلى (إلليل) خلال الدولة الأكادية، ثم أزاحه إله الدولة البابلى الصاعد (مردوخ MARDUK) نهائياً، واستولى على صفاته ومناصبه، ثم لم يكتف بذلك، بل اقتنص كل اختصاصات الآلهة العظام الخمسين، ولما يمض وقت قصير حتى تمكن من الاستيلاء على اختصاصات باقى الآلهة، وحتى دور (آنكى) الأب الأول، سُلب منه مبدئياً على يد إله جديد هو (آيا EA)، ثم أخذه منه (مردوخ) باعتباره فى الميثولوجيا البابلية ابن (آيا) ووريثه، أو الابن الذى فاق أباه قوة وحكمة.

وفى ذلك يقول (عبد العزيز صالح): إنه قد «انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومرى، عن أصل الخلق المادى والمعنوى

فى دنياهم، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود، جعلوا ربهم قطب الدائرة فيها»[1]، ويضيف (بوتيرو): «إن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداماً كلياً للأشياء كأصل الوجود، بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بخلق.. لكن يبدأ بتنظيم ما هو فى حالة فوضى»[2].

وقد وردتنا أسطورة شبه متكاملة للتكوين البابلى،فى الملحمة المسماة (إينوما إيليش Enuma Elish) التى تعنى (فى العلا عندما) أو (عندما فى العلا)، وقد دونت فى سبع لوحات، يعود تاريخ كتابتها إلى مطلع الألف الثانى قبل الميلاد، وتؤكد أن مبعث الفوضى الكونية الأولى كان يعود إلى سيادة إلهة أنثى عريقة قديمة، هى الإلهة (تيامت TIAMAT) ولنستمع إلى (بوتيرو) يسرد علينا موجزاً لهذه الملحمة، فيقول:

> فى الأسطورة الشهيرة للخليقة،المسماة إينوما إيليش.. التى ألفها علماء الدين فى بابل لتعظيم الإله مردوخ.. فى الأصل لم توجد سماء ولا أرض، لكن فقط مياه فى حالة من الفوضى، مكونة من إلهين أصليين، اختلطا مع بعضهما،

---

[1] د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص٤٧٩.

[2] بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٨.

هما الآبسو، والمومونيامت.. ونتيجة اندماج هذين الإلهين.. خرج الإله آن، الذى أولد أيا على شكله، والإله أيا قضى على الآبسو لأنه أراد تدمير نسله، وأولد مردوخ، وتبع هذا الحدث ثورة تقودها تيامت ضد الآلهة انتقاماً للآبسو، وتحضّر لمعركة مخيفة وتجهز مجموعة من الوحوش الكاسرة.. ويرفض الإله أيا الاشتراك وخوض الصراع ضد تيامت ويقبل الإله مردوخ النزال، للحصول على السلطة العليا.. ويجرى النزال وجهاً لوجه،مردوخ ضد تيامت، وينتصر عليها، ويسجن جيشها المخيف ويقسم جسدها إلى نصفين، وينفخ فيه الهواء ويعمل من نصف جسدها العلوى ـــ الذى يرميه إلى الأعلى ـــ السماء،ومن النصف الثانى.. الأرض.. وينظم بذلك مردوخ القبة السماوية بكل نجومها، التى حاز عليها بعد نضال عنيف فى تنظيم عالم الآلهة، ويتوج، ويحتفل به كسيد للآلهة السماوية، وعلى الأرض[1].

---

(١) نفسه: ص٩٧،٩٨.

إذن: كان فى الأصل غمر مظلم من الماء، ذكر هــو الآبســو (عرفناه باسم آنكى أو إنسى السائل المخصب)، والمومو (أى الماما أو الأم الكبرى) تيامت،(وواضح لصق اسمها من تى +أم = تيــام = الأم تى)، وبتلقيح الآبسو كسائل مخصب للأم تيــامت، جــاء الإلــه السماء (آن) وولد (أيا) الذى قضى على (آبسو) لأنه أراد تدمير نسله (ولنلحظ الرمزية هنا: أيا إله حل محل الإلــه آبســو كإلــه للســائل المخصب فى الثقافة السامية الغازية محل الثقافة السومرية.أما لمــاذا قضى أيا على آبسو، فلأن آبسو إله سومر، أراد تدمــير نســله أيــا السامى؟).

ثم ولد (أيا) ابنه (مردوخ) إله الدولة والملكية المركزية ونتيجــة مقتل السومرى (آبسو) قامت الأم الإلهة تطالب (أيا) السامى بدمــه، وهنا يقوم الإله الابن (مردوخ) بالصراع ضد (تيامت) ليحصل علــى السلطة العليا.

ولنفهم المعنى الأخير (لكى يحصل على السلطة العليا)، نستعين مباشرة بلوحات (الإينوما إيليش) فنجدها تقول:إن الآلهة وهى تجــد نفسها مهددة من الأم البحر (تيامت) تلجأ إلى مردوخ أحدث الآلهــة، إله الدولة الجديدة، لكن (مردوخ) يستفيد من ذلك، ليتجــاوز ســلطة مجلس السبع مقررة المصائر الخالقة،والخمسين العظام فيقول:

إذا كان علىَّ أن أكون بطلكم
وأن أقهر تيامت، وأنقذكم

اجتمعوا إذن
وأعلنوا عن سلطتى العليا
اجلسوا حقاً فرحين
فى بشو كينو
واتركونى أحدد مثلكم المصير
وذلك عن طريق:
الكلام الذى ينطق به فمى
وبهذه الطريقة
لن يكون بالإمكان
أن يتغير شىء مما أقرر
الأمر الذى أعطيه
لا يُرد، لا يتغير

وفعلاً

أقاموا له عرشاً يليق بأمير
وجلس يترأس وهو يواجه آباءه
أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة
إن ما تقرره لا يعارض
إن كلمتك الآمرة هى كلمة آن
منذ اليوم
لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير
نطقك يغدو الحقيقة
وأمرك لا يحتمل شكاً

وقالوا لبكرهم مردوخ:
افتح فمك
تتلاشى قطعة القماش
تكلم ثانية
تعود القطعة كما كانت..
ولما رأى آباؤه ثمرة كلمته
قدموا له الخضوع فى فرح
قائلين: من دونك ملك..
أيها السيد:
احفظ حياة من يؤمن بك
أيها السيد:
انزع حياة الإله الذى يضمر السوء
مر بالغرق، أو بالخلق
يكن ما تأمر به[1]

وهكذا ظفر (مردوخ) بالسلطة المطلقة،وتخلى له مجلسا الآلهة عن سلطانهما، ليصبح سيداً أوحداً، معبراً عن سلطة الملك البابلى، فى دولته المركزية الواسعة، ويؤكد لنا ذلك، طقس سنوى كان يقوم فيه الملك بتمثيل دور (مردوخ) فى مسرحية دينية، يحارب فيها (تيامت) وجيشها حتى يقضى عليها[2]، ممثلاً بذلك وقائع سفر

---

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٩٣،٢٩٤.

[2] فاضل عبد الواحد: عشتار..، سبق ذكره، ص١٣٤.

التكوين، وقد ذكر هذا الطقس فى أكثر من نقش، إضافة إلـــى أننــا نتأكد من مصداقية هذا الربط الذى نفترضه بين مـــردوخ والملـــك، بالنظر إلى ما ورد فى الأسطورة ذاتها، فالآلهة تقول:

لقد خلصتنا الآن أيها الإله
فماذا ستكون هبتنا لك؟
(إن الهبة ستكون هى تثبيت الملوكية، انظر النص:)
دعنا نبنى عرشاً
مأوى لإقامته؟![1]

ولا يكتفى (مردوخ) بذلك، كما لم يكتف الملك بمجرد عـــرش، بل يسلب (مردوخ) الآلهة العظام الخمسين فى المجلس ســلطاتهم، أو كما تقول الأسطورة:

أما نحن
فمهما أطلقنا عليه
فهو إلهنا
ألا فلنعل أسماءه الخمسين!![2]

---

[1] سليمان التكريتى: أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف، العراق، ١٩٧٢، ص٥٩،٧٣.

[2] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٣٠٤.

وهكذا يستولى الملك بدوره على سلطات المجالس شبه الديمقراطية الأولى، الباقية من نظام المشتركات المدينية، بعد توحيدها فى دولته المركزية، مع ملاحظة أن هذه التطورات تعبير فى الوقت ذاته، عن سيادة مطلقة للإله الذكر، تمثلت فى الفعل والخلق بمجرد الكلمة، كما تمثلت فى لوحات (الإينوما إيليش) حيث يقوم مردوخ بما قام به (إنليل) من قبل، لكن (إنليل) الذى ظل زماناً طويلاً إلهاً لطيفاً لطف طبعه (الهواء)، فرفع أباه آن عن أمه (كى)، فى مياه الغمر الأولى (نمو)، أما مردوخ فكان عنيفاً قاسياً، بعد أن حاز إمكانات أصبحت ضرورية، لحفظ الاستقرار فى دولته السماوية، وضرورية للملك الأرضى لذات الغرض، وهو رأس دولة كبرى مترامية الأطراف، تحتاج حزماً وقوة وعنفاً، لذلك قام (مردوخ) وبقسوة ينفخ (تيامت) بالهواء، ثم:

شقها كما تشق الصدفة قسمين
وثبت نصفاً جعله سقفاً سماء[1]
شطر جسدها شطرين،
أعلاهما ثبته فى السماء
خلق منه السماء
والأسفل ثبته فى الأرض
خلق منه الأرض[1]

---

[1] نفسه: ص ٢٩٨.

ويعقب موسكاتى هنا بقوله: (وبذلك قسم المياه الأولى إلى ميـاه فوق الجلد Firmament وأخرى تحت الجلد)[٢].

ونتابع الإينوما:

صنع مردوخ منازل للآلهة
خلق الأبراج
ثبتها في أماكنها
حدد الأزمنة
جعل السنة فصولاً
ولكل شهر من الاثنى عشر
ثلاثة أبراج
حدد الأيام بأبراجها..
وإلى الشرق
وإلى الغرب
فتح بوابة
وسلط القمر على الليل
وجعله زينة فى الليل

---

[١] د. أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من الأدب السامى، دار النهار، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠٦.

[٢] موسكاتي: سبق ذكره، ص٨٥.

به يعرف الناس مواعيد الأيام[١]

وبعد أن رتب (مردوخ) فى هذا المـــاء، أو الجلـــد الســـماوى، كواكبه ونجومه، والنيّرين الكبيرين: الشمس والقمــــر، هبـــط إلـــى النصف الثانى (الماء والأرض)، وهناك:

مردوخ على سطح الماء
ظفر حصيراً وصنع شيئاً من التراب
وخلطه مع الحصير
وهذا كون لوحاً صلباً
فوق المياه
هو: الأرض[٢]

لكن سماء (مردوخ) لم تكن سماء واحدة، وأرضه لم تكن أرضاً واحدة إنما كانت السماء سماوات، فـــهى ســـبع ســـماوات طباقـــاً، والأرض أيضا، طبقات سبع، أما فى أعلى السماوات، فقـــد ابتنـــى (مردوخ) لذاته العليا عرشاً يليق بجلاله، وبإطلاقية سلطانه[٣].

---

[١] فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٠٧.

[٢] بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٦.

[٣]د. أنيس فريحة: دراسات فى التاريخ، دار النهار، ط١، بيروت، ١٩٧٤، ص٥١.

ولما انتهى (مردوخ) من التكوين الكونـــى، اجتمعــت الآلهـــة واحتفلت بتتويجه سيداً للكون، وبنوا له مدينة (بابل) أو (باب ــ إيل) أو (باب ــ الإله) لتكون مقراً لممثله على الأرض، وفى وسطها بنوا له معبد (الإيساجيل Esag El) وترجمته الحرفية (مقر رأس الإله)[1]، مما يشير إلى أن (مردوخ) قد تعرض للقتل والذبح، باعتبار المعبـــد مدفناً للرأس فقط، مما يربطه بآلهة الفداء الشهيدة وعبادات الخصـــب والرى، مثل (أوزيريس OSIRIS) المصرى و(أدونيـــس الفينيقـــى)، الذى هو أحد البعول الكنعانية، و(آتيس ATIS) الفريجى، و(ميتـــهرا METHERA) الفارسى، و(يسوع) العبرى، و(الحســـين) العربـــى.. إلخ، وقد وجدنا أن أسطورة إله الـــرى الذبيـــح قـــد لحقــت بالإلـــه (مردوخ)،وكانت تقام له سنوياً، طقوس واحتفالات للتذكرة بعودتـــــه حياً من بين الأموات، فى عيد للقيامة مجيد، وساعتها يتلـــو الكهنـــة أمامه أسماءه الخمسين، إعلاناً عن حيازته كل ألقاب السيادة. وأهـــم هذه الألقاب لفظ الجلالة الاسمى (إل) أو (إيل)، ولقب (بعل) أى سـيد الآلهة أو ربها، ويفيد السيادة عموماً، وغنى عن البيـــان أن الملـــك البابلى وهو يقوم بدور (مردوخ) فى هذه التمثيلية الدينية، كان يحظى سنوياً وبتكرار دورى وتكريس مستمر، بـــاعتراف أعضـــاء كـــل المشتركات المنضوية تحت لوائه، بسيادته المطلقة، بعد أن حاز كـــل الأسماء وكل شارات السيادة، وكل رموز السلطان المرموز لها فـــى الأسطورة بالأسماء الخمسين.

---

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٥١.

وعليه فقداستولى الملك نهائياً على كافة شارات ومناصب آبـاء المشتركات، الذين بدأوا سادة بدائيين، ثم سادة لمشـتركات معبديـة فمدينية، وانتهى أمرهم بالتسليم للملك القوى الصاعد، المتربع علـى عرش بابل، فأصبح هو الأب الواحد الأوحد للجميع، ولا أب يدانيـه فى إطلاقية النفوذ، ويبدو أن بداية ظهور الأب الأرضى المتفوق هى التى أفرزت رباً متفوقاً عن بقية الأرباب، كخطـوة تطوريـة فـى السماء أفرزها جدل المجتمع على الأرض، مما ميز بالتدريج إلـهاً عن سائر الآلهة، استطاع بعد ذلك أن يلغيها ويجعلها آلهـة تابعـة، لعدم قبول رفيقه السيد الأرضى المستبد بوجود أى منافسين له.

ومن هنا أصبحت كلمة السيد الأرضى المتربع فى بـابل لا راد لها، نافذة بقوتها الذاتية، لأنها صادرة عن فم الأب الأعظـم، الـذى تمثل كلمته حكمة الإله (مردوخ)،يكفى أن تكون نطقاً باللسان فيكـون كل المراد محققاً فى الواقع.

وبذلك تركت الفكرة السامية عن الكلمة الملكية الفاعلة بذاتـها، أثراً فى عموم فروع اللغة السامية،وأصبح الأمر (كُن) مـن الفعـل يكون أى يوجد، (ويكوِّن) أى يخلق، والعالم الموجود بكليته إنما هـو أحد اشتقاقات الكلمة، فهو (الكون)، فامتلك الأمر (كُن) قدرة سـحرية لغوية تؤدى بمجرد نطقها من قبل شخص مؤهل لها (ملـك، إلـه، ساحر، كاهن) إلى (الكينونة)، أى الوجود الواقعى المتحقق (كيانـاً) عيانياً.

لكن الأمر الواجب إيضاحه هنا، هو أن (مـردوخ) لـم يخلـق بالكلمة إنما بالعمل اليدوى، فقد شق (تيامت) كمـا تشـق الصدفـة، ورفع السماء وحط الأرض... الخ، بينما اقحمـت مسـألة القـدرة السحرية للكلمة الفاعلة (كُن) إقحاما فى الإينوما إيليش:

أقاموا له عرشاً يليق بأمير
وجلس يترأس وهو يواجه آباءه
أنت الأكثر تمجيدا بين كبار الآلهة
إن ما تقرره لا يعارض
إن كلمتك الآمرة هى كلمة آن
منذ اليوم
لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير
نطقك يغدو الحقيقة
أمرك لا يحتمل شكاً؟!

واضح أن النص هنا ليس تعبيراً عن مطلب الملك الأرضـى، ليصبـح سـيدا مطلـق النفـوذ، إزاء طـوارئ اكتسـبت صفـة الديمومة،بحيث تنفذ أوامره دون مناقشة، لذلك نلحظ أن كل ما جـاء عن الكلمة الخالقة فى الأساطير لا يتعلق فعلا بمـا حـدث لتكويـن الكون وإيجاده،إنما كان تجربة كتجارب الحواة وألعابهم، قصد بـها تأكيد تبعية الأتباع للسيد، أنه (لو أراد) شيئاً بالكلمة سيحققه:

ووضعوا فى الوسط قطعة قماش

وقالوا لبكرهم (مردوخ): افتح فمك
تتلاشى قطعة القماش
تكلم ثانية تعود القطعة كما كانت
ولهذا
قدموا له الخضوع فى فرح قائلين
مَنْ دونك ملك؟

وإعمالاً لكل ما سبق، يمكننا الزعم أن دخـــول فكـــرة الكلمـــة الخالقة إلى سفر التكوين، بدأت تعبيراً عمـــا وصـــل إليـــه التطـــور السياسى فى المجتمع الإنسانى، وتعبيرا عن وجوب الطاعة الكاملـــة غير المشروطة للعاهل الذى لا ترد كلمته ولا تتبدل، والتـــى يجـــب تنفيذها الفورى مهما كانت غير مقبولة أو غير معقولة، ومـــع ذلـــك واصلت فكرة الكلمة الخالقة صعودها الخيالى فى اللغـــات الســـامية، ليصبح للأمر (كُنْ) دلالات القوة الفاعلة فـــى الكـــلام لكنـــها علـــى المستوى الفعلى لم تكن ذات دور فاعل حقيقى فى عملية الخلق، التى تمت بموجب (الإينوما إيليش) البابلية.

وظل فكر الساميين الدينى بعد ذلك، يحتفظ بكلتا الفكرتين جنبـــاً إلى جنب: الخلق بالعمل اليدوى والفعل البدنى من جانب الإله الخالق (يفصل السماء عن الأرض، يخلق الإنسان بيديـــه، يكتـــب ألـــواح الشريعة التوراتية بإصبعه... الخ) وفى الوقت ذاته، يمكنه أن يخلـــق بمجرد الكلمة تعبيراً عن سلطانه اللامحدود، وقدرته اللانهائية، لكـــن يبدو فى مختلف نصوص الديانات السامية، أن الأمـــر (كـــن) كـــان مجرد إمكان غير متحقق (حتى الآن)،أو هو استعداد إلهى موقـــوف

لإثبات القدرة المطلقة فقط، فهو استعداد بالقوة لم ينتقل إلى الفعـــل، وربما ينتقل من القوة إلى الفعل حين يشاء، لكنه لم يعد الآن مجديـــا، بعد أن وجد الكون فعلاً بالطريقة اليدوية التصنيعية.

ولو نظرنا لتصوير (مردوخ) فى النقـــوش، سـنجده صـورة مطابقة للنقوش الملكية، نقش لرجل يلبس تاجاً مخروطياً عالياً، تزينه وريدات، له لحية طويلة مصففة بتجاعيد مصطنعة على غرار صنعة الحلاق بالقصر الملكى، ومثل الملك كان (مردوخ) يرســـل شـعره خلفه، بينما يرتدى ثوبا طويلا مرصعا بالنجوم، يضم يســـراه إلـــى صدره، وهى تقبض على رموز السيادة : (الدائرة والعصا)[1] وهمـا فيما نرى رمزين لحيازة السيادة على مجتمعين ونظامين: الرعـــوى الذكرى والزراعى الأمومى[2]، وإمساكهما إمساك بقدرة منح الحيـــاة وإعطائها، فالعصا عضو الذكورة، والدائرة فرج الأنثى.

الدم روح الإنسان:

---

[1] بوتيرو: سبق ذكره، ص٤٤.

[2] للمزيد حول تقسيمنا للنظام الاجتماعى الغابر إلى رعوى يرتبط بسيادة الذكر، وزراعى يرتبط بسيادة الأنثى، ارجع إلى بحثنا: الأضاحى والقرابين والجـــذور الاجتماعية، سبق ذكره.

يقول الباحث العراقى (فوزى رشيد): إن «قصة الخليقة البابلية، قد تضمنت بين سطورها وصفاً لوضعية الآلهة، بعد أن كتب عليها العمل، وكيف أن تلك الوضعية كانت لا تختلف عن وضعية الإنسان، بعد خلقه..

عندما كانت الآلهة مثل البشر
(وتعنى لدينا: عندما كان الملوك كبقية الناس)
توجب عليها العمل
وكانت سلة عمل الآلهة كبيرة
وكان عملهم صعباً
لذلك تعددت الشكوى..

ويعنى هذا أن الإنسان قد خلق، من أجل أن يقوم بتزود الآلهة بالطعام والشراب والسكن، وهذا ما قاله (فوزى رشيد)[1] مع تعليقنا بين قوسين. لكن مع سياق فهمنا للأمور، نرى القصة صدى لواقع حدث، بعد أن تفرغت فئة للحكم،وتحررت من عناء العمل، لذلك تردد القصة ما سبق ورأيناه فى التكوين السومرى، حيث انقسم مجتمعهم الإلهى إلى صنفين من الآلهة:آلهة عاملة أو شغّيلة، وآلهة متفرغة للخلق وإدارة شئون الكون، لكن التكوين البابلى قام هنا بصياغة جديدة فأوضح أن الآلهة خلقت البشر ليحملوا هم أعباء العمل، لتتفرغ الآلهة لإدارة شئون الكون والبشر، وكان أكبر الآلهة

---

[1] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص١٨،١٩.

(مردوخ) الذى يمثله على الأرض ملك بابل، وما على أفراد المجتمع سوى السعى من أجل خدمته وراحته، وتقديم فائض إنتاجهم بين يديه.

ونعود إلى (الإينوما إيليش) نستطلعها التفاصيل، فتقول في لوحتها السادسة:

ألا فليذكر الرعايا دائماً إلههم
وطبقاً لكلمته يهتمون بالآلهة
ألا فلتحمل القرابين
إلى آلهتهم وإلاهاتهم
وبغير نسيان
فليعنوا دائماً برعاية آلهتهم
ليستصلحوا أراضيهم
ويبنوا هياكلهم
ليخدم ذوو الشعور السوداء
آلهتهم[1]

ونستكمل من ملحمة (اتراخاسيس) بدءاً من السطر (١٧٩) بالعمود الرابع، الذى يقول:

---

[1] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠٤.

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم
ليتها تخلق الإنسان الأول
لكى يحمل هذا الإنسان سلة عمل الآلهة
نادوا مولدة الآلهة الإلهة (مامى) الحكيمة
وسألوها:
أنت الرحم خالقة البشر
اخلقى الإنسان الأول
من أجل أن يحمل النير..
سلة عمل الآلهة يجب عليه حملها
فتحت الإلهة (ننتو) فاها
وخاطبت الآلهة العظيمة:
ليس بمقدورى أن أفعل ذلك
إن القدرة بيد الإله (آنكى)
إذ بإمكانه أن يجعل كل شيء طاهراً
فتح الإله آنكى فاه
وخاطب الآلهة العظام:
فى اليوم الأول، والسابع،
والخامس عشر من الشهر
سأقيم طقوس الاغتسال
وسأقيم الحمام
وليذبح الآلهة إلهاً من بينهم
وبعد ذلك يطهروا أنفسهم فى الحمام

وعلى الإلهة (ننتو) أن تمزج الطين
مع لحمه ودمه
وليت الإله والإنسان يمتزجان سوية
فى الطين دعونا نستمع إلى الطبل
من أجل مصير الأيام القادمة
وبسبب لحم الإله
نود أن يسكن شبح الموت
جسم الإنسان
وليذكر هذا الشبح الأحياء بالموت
ماداموا على قيد الحياة
ليت شبح الموت أن يوجد فى الإنسان..
ثم فتحت الإلهة (مامى) فاها
وقالت تخاطب الآلهة العظام:
لقد عهدتم إلىّ عملاً فأكملته
ومادمتم قد ذبحتم إلهاً رغم قدسيته
فها أنا قد رفعت عنكم عناء أعمالكم الشاقة
وجعلت الإنسان يحمل سلة عملكم
وها أنتم قد وهبتم صراخكم للبشرية
وها أنا حللت عنكم النير
حررتكم من الواجبات
ولما سمع الآلهة كلامها
تراكضوا إليها وقبلوا قدميها
وقالوا:

فى السابق الإلهة (مامى) كنا نناديك
والآن: ليكن (سيدة الآلهة) اسمك[1]

ولاستطلاع أمر هذا الإله الذى ذبح، نعود مرة أخرى إلى (إينوما إيليش) فتطالعنا:

قتل (كنجو)، قطعت شرايينه
سال الدم
ومن الدم، خلق الإنسان
ليعبد الآلهة، يخدمها[2]

ولأن (إينوما إيليش) أكثر سامية من (إترام خاسيس) المتأثرة بالفكر السومرى أكثر، فإن (الإينوما) تحاول إبراز دور (مردوخ) بفاعلية أوضح، فى عملية خلق الإنسان، فتقول:
بعد أن سمع الإله (مردوخ)
كلمات الآلهة
تحرق قلبه من أجل خلق الكمال
وعندما أخبر الإله (أيا) بقراره
وشرح له خطة العمل
التى رسمها فى ذهنه:

---

[1] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص٢٤،٢٥.

[2] فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٠٩.

أريد أن يحضر لى الدم والعظم
أريد أن أخلق لوللو
الذى سيكون اسمه الإنسان
لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة
حتى تنعم هى بالراحة
وأريد أن أجعل طريق الآلهة
محاطاً بالإبداع..
يجب إحضار أحد إخوانك
لنذبحه ونصنع منه البشر
وليت الآلهة العظام تجتمع الآن
وتعترف عليه الآلهة
جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام
وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة..
سأضعكم الآن تحت القسم
وأطلب منكم الحقيقة
من منكم تسبب فى نشوب الحرب؟
(تيامت)!
(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة.
عليكم بإحضار الذى تسبب
فى نشوب الحرب
لأنى أريد أن أحمله وزرها
لتعيشوا أنتم فى هدوء
(كنجو)

هو الذى تسبب فى نشوب الحرب
و(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة،
ربطوه
وجاءوا به إلى الإله (أيا)
وحملوه وزر جريمته
وسفكوا دمه
وعلى دمه خلق الإله (آيا) البشر
وحملهم عناء الآلهة
وتحررت هى منه
وعندما قسم الإله مردوخ
ملك الآلهة
آلهة الآنوناكى إلى قسمين
علوى
وسفلى[1]

وهكذا سجلت اللوحة السادسة:

إنه (كنجو)
هو الذى أثار الفتنة
وحرض (تيامت) على الثورة
واشترك فى المعركة

[1] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص٢٥.

فقيدوه
وأمسكوا به أمام (آيا)
ووضعوا عليه جريمته
وفصدوا دمه
وصاغوا منه البشر[١]

وعليه سجلت ذات اللوحة قول (مردوخ):
سأكتل العظم وأخلق اللحم
سأصنع إنسانا..
سيكون اسمه الرجل..
سيكلف بخدمة الآلهة[٢]

ولنقف الآن مع هذه النصوص، لنحاول معرفة علاقتها بواقع الأحداث، ولنبدأ مع مبتداها:

عندما كانت الآلهة مثل البشر
توجب عليها العمل

فالنص يردد هنا صدى واقع أحداث المجتمع، قبل تفرد فئة بالحكم دون باقى الأفراد، عندما كان الجميع سواء فى العمل، ثم

---

[١] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠١.

[٢] نفسه: ص٣٠٠.

تطورت الأوضاع إلى تفرد البعض بالإدارة،واستيلائهم على فـائض إنتاج الأفراد:

ألا فليذكر الرعايا إلههم..
ألا فلتحمل القرابين
إلى آلهتهم وإلاهاتهم
وعلى باقى أفراد المجتمع الكد والعنت والكدح
فى الأرض،
ليستصلحوا أراضيهم
ويبنوا هياكلهم

وإن الربط بين العمل فى الأرض، وبين بناء الهياكل والمعـابد، هو ترسيخ واضح لسلطان الملك المرتبط بفائض العمل، وبقدسـيته كإله يستحق هذا الفائض بالحق الإلهى، ثم لنتأمل أبيات ملحمة (إترام خاسيس)،التى يتضح فيها أثر تقديس الميلاد من أم إلهة، وهى فكـرة أقدم:

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم

ليتها تخلق الإنسان

(لنلحظ أن القراءة الأصدق لاسم الإلهة بيليت إلى هـو بعليـت إيلى، أى البعلة الإلهة أو السيدة، أو سيدتى البعلة)

وتظهر فى النص أثر مفاهيم عبادة الخصب والرى فى أصل الوجود والخلق بالميلاد من أم أولى، وهو بدوره أثر من عبادة الأم فى مجتمعات الخصب القديمة، وذات النظام الاجتماعى الأمومى الغابر، ويتضح ذلك فى النص:

نادوا مولدة الآلهة
الإلهة (مامى) الحكيمة
وسألوها:
أنت الرحم، خالقة البشر

والإلهة (مامى) هى التى عرفناها فى سفر التكوين السومرى،باسم (ننتى) أو (ننتو) وهو ما يردده نصنا الحالى لكن بعد التمازج مع الفكر السامى فى نظامه الأبوى الذكرى، الذى سلب هذه الأم قدرتها الذاتية على إنجاب الحياة وحدها دون معين، فيقول:

فتحت الإلهة (ننتو) فاها
وخاطبت الآلهة العظمى
ليس بمقدورى أن أفعل ذلك
إن القدرة بيد الإله (آنكى)

لم يزل الإله (آنكى)حتى الآن فاعلا فى أسطورتنا السامية المبكرة، ومن الضرورى أن يلقى ببذرة الخصب،أو السائل المخصب، حتى يتم التكوين المطلوب،لكن يدخل هنا عنصر جديد

على المناطق الخصبة،فقد تصورت هذه المناطق فى فجر الفكـــر أن وجود البشر مسألة خاصة بالأم وحدها، خاصة أيام المشاع البدائـــى القديم، ولم يكن للذكر دور يمكن ملاحظتـــه فـــى عمليـــة الحمـــل والوضع، كنتابع التقاء المرأة بأكثر مـــن رجـــل، فتصـــوروا أن دم الحيض هو سر الميلاد، ومنه يتكون الجنين لدى المرأة دون معيـــن، لكن دخول الثقافة الذكرية أدخل دوراً واضحاً للذكر فـــى التكويـــن الإنسانى، مع رغبة مُلحّة فـــى إلغـــاء دور الأنثـــى تمامـــاً، إلغـــاء لسلطانها.

وحتى يتم الخلق من الدم باعتباره المـــادة المعروفـــة لتكويـــن الجنين، وليس لديهم مادة أخرى يقبلها حسهم للتكوين المطلوب فنعتقد أنهم عمدوا إلى الدم كمادة لتكوين الإنسان الذى إذا جرح سال منـــه هذا الدم الذى خلق منه حتى إذا نفذ دمه مات، لكنـــهم اســـتبعدوا دم الأنثى واستبدلوه بدم ذكرى، وبما أن الذكر لا يحيض، إذن فليذبـــح؟! ومن هنا سجلت النصوص:

قتل كنجو، قطعت شرايينه
سال الدم
ومن الدم خلق الإنسان

وهكذا نظن الفكر الذكرى قد حقق سلطان فلسفته، ثـــم ضمّنـــها تفسيره لظاهرة الموت، فالإنسان يموت لأنه تكّون من دم إله ميـــت (بعد مزجه بالطين):

وبسبب لحم الإله
نود أن يسكن شبح الموت
جسم الإنسان
وليذكر هذا الشبح الأحياء
بالموت
ماداموا على قيد الحياة
ليت شبح الموت يوجد فى الإنسان؟!

ثم ترى (الإينوما) الأكثر إيغالا فى الطابع الذكرى، ومركزية السلطان، وجوب تقسيم المجتمع طبقتين: طبقة تعمل، وطبقة تحكم وتدير، وهذا هو الكمال وتمام النظام بعد الفوضى الكونية، والاجتماعية، الأولى، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)
كلمات الآلهة
تحرق قلبه من أجل أن يخلق الكمال
وقد حقق ذلك عندما
قسم الإله (مردوخ) ملك الآلهة
آلهة الآنوناكى
إلى قسمين
علوى وسفلى

أما لماذا؟ فهو ما يجيب عليه النص بلسان (مردوخ):

أريد حقا خلق الإنسان
لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة!
حتى تنعم هى بالراحة

ومن ثم يبدو أن الملك الأرضى، قد سوغ استيلاءه على مجمـــع السلطات بشكل يعطيه تفويضا من قبل رؤساء المدن وحكامها، إبـــان عملية التوحيد والمركزة، كى يبدو هذا التفويض شهادة منهم وموافقة غير قسرية فيقول النص:

جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام
وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة
سأضعكم الآن تحت القسم
وأطلب منكم الحقيقة
من منكم تسبب فى نشوب الحرب
(تيامت)!
(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة

ربما كان ذلك ترديدا لذكرى قديمة، إبان تداخــــل المجتمعيــن الذكرى الأبوى والأنثوى الأمومى، وسيادة النظام الذكـــرى،وربمــا كانت تيامت رمزا للنظام الأمومى الذى غبر بسيادة الذكر.

عالم آدم:

وهكذا بات واضحا أن قصة التكوين السامية (أكدية أو بابلية والتى اصطلحنا على تسميتها (سفر التكوين البابلى)، لم تختلف كثيرا عن (سفر التكوين السومرى)، بل رددت مفاهيم سومرية حول الآلهة وطبيعتها، مع إضافات وتعديلات تتلاءم مع التطور الذى لحق النظام الاجتماعى، الذى أرسى نهائيا دعائم حكم الذكر، وعبادة الذكر، وغنى عن الذكر أن ذات قصة التكوين،قد عرفت طريقها إلى التراث السامى فى مختلف مناطق الهلال الخصيب، مع تعديل طفيف فى التفاصيل دون الأصل،مع تغير خلع الإله الخالق وتنصيب غيره بتغير السادات، فالإله (آشور) يأخذ دور (مردوخ) عندما تخضع الرافدين للآشوريين، بينما يكون لدى الكنعانيين هو (بعل)، الذى يقوم بمهمة الخلق التى قام بها البعل البابلى (مردوخ) و(إنليل) و(آنكى) السومريين.

وفى مصير الموتى، ظل العالم التحت أرضى قائما فى مختلف العقائد السامية وفى ذلك يقول (بوتيرو):

«بالنسبة للبابليين بصورة عامة فإن ما بعد الموت لم يكن مغريا لهم.. وفى أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلى.. وردت تعابير غير شيقة أبدا عن حالة الموتى

التعيسة.. إن طعامهم هـو مـن الطيـن، إن
غذاءهم هو من التراب، لا يرون النور أبـداً،
فهم يسكنون بالليل».

وحتى عشتار نفسها لم يكن لها القابلية أوالحق فى الدخول بيـن هؤلاء إلا بعد أن نزعت كل ما يسـترها.. قطعـة بعـد أخـرى، وأصبحت على صورة العرى الكامل، الذى يستلزمه الذهاب إلى هـذا العالم[1].

ولهذا السبب كانت «الحياة بالنسبة للبابلى مـن أعظـم وأكـثر الآمال، ونعرف منذ العصر السومرى أن الملوك والخاصة، الذيـن أقاموا المعابد وجهزوا الهدايا للآلهة، عملوا ذلك بكل الوضوح، خوفاً على حياتهم، حتى تكون هذه الحياة طويلة الأمد، وهذا هـو الـهدف الذى ينشده الورعون والأتقياء من رجال الدين أيضاً،فتقديم القرابيـن للآلهة يطيل العمر»[2].

ويشرح موسكاتى تطابق وجهة نظر البابليين والسومريين فـى عالم تحت الأرض بقوله: إنهم اعتقدوا «أن روح الإنسان بعد الموت تنفذ من القبر إلى العالم السفلى أرالو Arallu، وهى مدينة كبيرة يلفها

---

[1] بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٠.

[2] نفسه: ص١٣٢.

الظلام والتراب، ويعيش فيها الموتى عيشة حزينة كئيبة، يشـــربون الماء القذر ويأكلون التراب، ولا يمكن التخفيف من هـــذا البـــلاء إلا بالقرابين، يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه،الذين لا يزالون على قيـــد الحياة»[١].

ومن هنا يعقب (ديورانت)على فكرة البابليين عن العالم البـــابلى التحت أرضى بقوله: إن «فكرة البابليين عن الحياة الأخرى، كـــانت فى جملتها.. فكرة أموات منهم قديسون، وأنذال، ومنـــهم عبـــاقرة، وبلهاء يذهبون إلى مكان مظلم فى جوف الأرض»[٢].

هذا بينما يحيطنا (دولابورت) علماً باسم آخـــر لـــهذا العـــالم، إضافة إلى (أرالو) فى قوله: «وبعد أن يعد الميت إعـــداده الأخـــير، يهبط إلى الأدمو، إلى الأرض الكبيرة، مأوى الظلمات.. إلى البيـــت الذى يدخله الداخل ولا يخرج منه، وهو كما تصفه رحلة عشـــتار.. موضع من الأرض تخيم عليه الظلمات، وتحيط به أسوار سبعة، لكل منها باب واحد، والموتى قد نبتت على جوانبـــهم أجنحـــة كأجنحـــة الطيور، يأكلون التراب ويتغذون بالرغام، هذه هى المملكـــة التـــى يتزعمها نرجال(عرفناه باسم كور عن السومريين)، والإلهة اللاتـــو (وتعنى اللات وهى مؤنث إل أو إيل).. التى تحـــت أمرهـــا أرواح

---

[١] موسكاتى: سبق ذكره، ص٨٠.

[٢] ديورانت: سبق ذكره، ص٢٢١.

الطاعون والأمراض التى ترعى الموت، وتحول فى المعتاد دون عودتهم إلى الأرض للإيقاع بالأحياء»[1].

ولكن على ما يبدو أن ما طرأ من تطور فى الأوضاع الاجتماعية على الأرض، انتقل إلى ما تحت الأرض، وإلى هناك انتقل التمايز الطبقى الناشئ عن قيام الدولة الملكية المركزية، فنشأ تمايز مماثل فى العالم التحت أرضى، جاء فى الصياغة السامية لملحمة جلجامش السومرية، وبالتحديد فى اللوح الثانى عشر، حيث نجد فى هذا العالم:

أمواتاً عظماء
وأمواتاً حقراء
أغنياء وفقراء
سعداء وتعساء[2]

وتبقى هنا مسألة، تثيرها طبيعة اللغة السامية التى تعشقت فيها روافد متعددة، فدخلت البابلية ألفاظ سومرية لفظاً ومدلولاً، وتبودلت المعانى والألفاظ بين مختلف اللغات السامية لظروف الجوار

---

[1] ك. دولابورت: بلاد ما بين النهرين، حضارة بابل وآشور، ترجمة مارون الخورى، دار الروائع الجديدة، بيروت، ١٩٧١، ص١٩٦.

[2] بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٢.

والغزو، والعلاقات السياسية والاقتصادية وحتى الدينية، مما أدى إلى تشابك لغوى هائل وإن كنا سنحاول التعامل مع الإشكال فى أسهل الحدود الممكنة: لقد سبق وعلمنا أن السومريين أطلقوا على عالم تحت الأرض اسم إدّين Edin وتنطق أيضا الدين وأدِن، وبما نعلمه عن الخلط القديم بين (الميم) و(النون)، يمكن أن تتحول (أدين) إلى (أديم)، ورأينا البابليين يطلقون على العالم التحت أرضى (آدمو) أو (آدم)،وبما نعلمه عن الخلط بين (العين) وبين (الهمزة) تصبح أيضاً (عدم) و(عدن) فيصبح عالم تحت الأرض هو عالم: أدِن، الدين، أدين، أديم، أدمو، آدم، عدم، عدن (ولنلحظ ارتباط المعنى القائم بين مختلف الأسماء فكلها تعطى معنى العودة إلى العدم والأصل وهو التراب أو الأديم، وآدم من تراب وإلى عدم أو إلى أديم يعود، واللفظ آدم لفظ سامى يدل على أب البشر، جاء فى النصوص الأوجاريتية المكتشفة مؤخراً،وهى لغة سامية فينيقية، وكما فى ملحمة (كارت ملك صيدون):

أب آدم ويقرب (أى ويقترب الأب آدم)
أو ظهر له فى الحلم إيل، فى رؤياه ظهر أبو
آدم[1].

و(آدم) فى هذا تعنى الإنسان أو البشر، وواضح فى النص وراثة الاعتقاد القديم فى عبادة الأب الأول، لذلك جاء (إيل) الإله

---

[1] السواح: سبق ذكره، ص٨٧،١١٨.

الأعظم فى النص كأب للبشرية، وهو الذى لقب فى ملحمة البعل الأوجاريتية الفينيقية بأنه:

خالق الخلائق..
خالق الكائنات
لطفان (كثير اللطف)
إله الرحمة..[1]

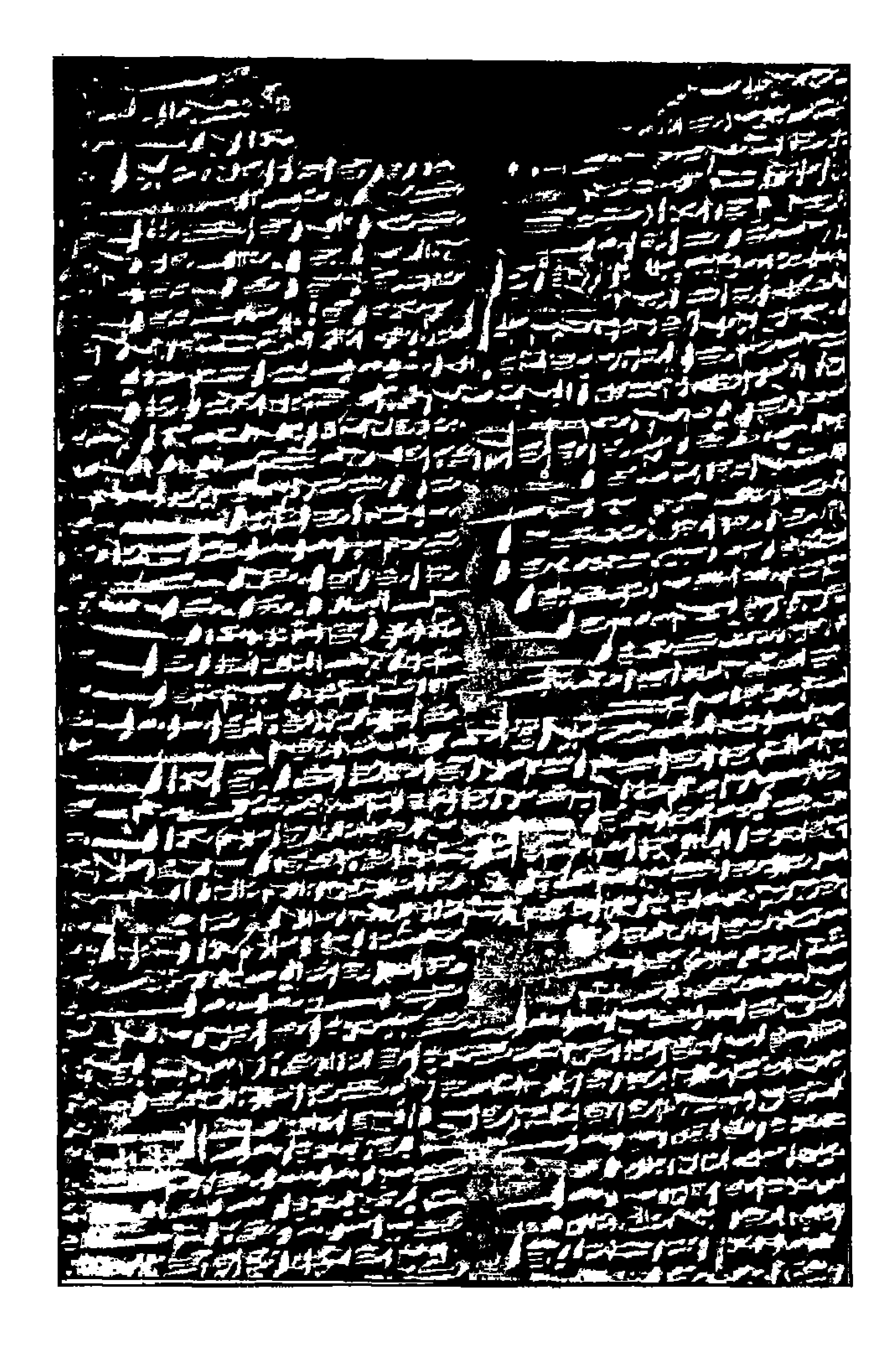
وهى كلها صفات تشير إلى الألوهية ممزوجة بالحنان الأبوى وكان (إل) أو (إيل) يُعَد لدى الفينيقيين الإله الأعلى، ويلقب بـ(العلى Suprem God)، فهو أبو الآلهة جميعاً، وأبو البشر أيضاً.

وإلى جانب (إل) عبد الفينيقيون إلهاً آخر لا يقل عنه أهمية بل هو أقرب إلى الناس من الأب الأول (إل) عرف فى فلسطين باسم بعل، وفى لبنان فى فينيقيا باسم (أدونيس Adonis)، الذى هو (آدون) بعد حذف الياء والسين التى تلحق بأسماء الأعلام أو (آدوم) أو (أديم) أو (آدم) أو (عدم) أو (عدن).

* * *

---

[1] فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٢٤،١٢٥،١٤١،١٤٧.



كتابة مسمارية مـن اللـوح الرابـع فـى قصـة الخلـق (إينوما إيليش) الرافدية القديمة.

الباب الثالث

سفر التكوين التوراتى

تأسيس

عندما نبدأ الحديث عن التوراة، فهذا إنما يعنى أننا نتحدث عن أخطر الشعوب السامية، ذلك الشعب ذو الأسماء المتعددة: عبريون، يهود، إسرائيليون.

وقد استطاع هذا الفرع من الشعوب السامية، أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويحوز شهرة واسعة فى العالم حتى اليوم، نتيجة ارتباط هذا الشعب بالتوراة، تلك المأثرة التى تمكن من إنجازها، وجمع لها مادة دينية هائلة متنوعة، تحت عنوان (الكتاب المقدس BIBLE)، الذى أصبح مصدراً تاريخياً ودينياً لا غنى عنه، للباحث المدقق أو المؤمن المتبتل، على حد سواء، نتيجة كونه الأثر الوحيد الذى وصلنا متماسكاً وشبه جامع لتراث شعوب حوض المتوسط الشرقى بجملة عادات هذه الشعوب وتقاليدها ونظمها الاجتماعية، واعتقاداتها الدينية مع عدد غفير من الأساطير والمتواترات والملاحم والفلكلوريات، لذلك فهو مُعين للمؤمن، كما أنه لاشك مَعين غزير للباحث المنقب أيضاً، لكن مع إشكالية كبرى ناشئة عن كون اليهود قد جعلوا جماعتهم وأربابهم، قطب الدائرة فى هذا الكتاب فنسبوا بطولات الملاحم إلى آبائهم الأوائل أحياناً، أو نسبوا أبطال أساطير شعوب أخرى إلى أنفسهم، وادّعوا النسب السلالى إليهم أحياناً أخرى، فكانت النتيجة مزيجاً هجيناً من ثقافات شتى، تعود إلى الراسب الثقافى لمجموعة كبرى من شعوب المنطقة تلاقحت جميعاً على صفحات الكتاب، ولعب فيها اليهود دور البطولة المطلقة.

والكتاب المقدس المتداول الآن، هو مجموعة الأسفار التي جمعها اليهود، مع ما أضافه إليه المسيحيون من أناجيل ورسائل مقدسة، وللتفرقة بين المقدس اليهودى، والمقدس المسيحى، داخل الكتاب المقدس، اصطلح على تسمية اليهودى (العهد القديم) وتسمية المسيحى (العهد الجديد). ومدار بحثنا هو المقدس اليهودى أو العهد القديم، لما تضمنه من تراث شعوب المنطقة.

وقد اختلف الباحثون حول ضبط وتوقيت جمع مادة هذا الكتاب التى كانت متناثرة على المتاح آنذاك من وسائل الكتابة، إضافة إلى ما دخل إليه أثناء جمع المادة من تأليف جديد وترتيب جديد، ويذهب (أنيس فريحة) إلى أنه «كانت مواد أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم دينى فى بادئ أمرها روايات شفهية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون فى حدود ٤٤٠ق.م»[١].

ويلخص (حسن حنفى) القول فى قوله: «إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد، فى عصر واحد، لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون، فى عصور متعاقبة، لجماهير مختلفة المزاج، ويمتد التدوين إلى ألفى عام، وربما أكثر من ذلك»[٢].

---

[١] د. فريحة : دراسات .. سبق ذكره، ص١٩٨

[٢] د. حسن حنفى : (هوامشه علي ترجمة لكتاب اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، مراجعة د. فؤاد زكريا) دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٨١، ص٢٨ .

هذا إضافة إلى الإقرار الواضح فى مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس لسنة ١٩٦٠، الذى يقول: «ما من عالم كاثوليكى فى عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذى كتبه عديدون من بعده، بل يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً حدث، سببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية».

وقد حاول بعض العلماء تحديد الفترة الزمنية التى استغرقها زمن تدوين الكتاب المقدس، فطالت المسافة وامتدت ما بين بداية القرن العاشر قبل الميلاد وانتهاء بالقرن الأول الميلادى، وذهب هؤلاء إلى أن الأسفار الخمسة الأولى قد كتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد، أما آخر الأسفار وهو سفر المكابيين الأول، والثانى،فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد[1].

أما موسوعة تاريخ العالم، التى أشرف على تحريرها عدد لا يستهان به من العلماء، فقد أكدت أن فى هذا الكتاب أجزاء ألفت ما بين ١١٥٠ ق.م وبين ١٣٠ق.م، وأجزاء أخرى كالأسفار الخمسة الأولى، قد أخذت صورتها النهائية حوالى عام ٤٠٠ق.م، وتحوى كتابات يرجع تاريخها الشفاهى إلى ستة قرون سابقة على هذا التاريخ، بينما الأسفار التاريخية قد كتبت سنة ٥٥٠ ق.م مع

---

[1] السواح: سبق ذكرة، ص١٠٨.

تصنيفات أخرى للكتاب، قدمت لها الموسوعة اقتراحـــات بتواريـــخ مختلفة ومتباعدة تباعداً كبيراً[1].

وكما هو ملاحظ، فإن أكثر الباحثين يطلق على هـــذا الــتراث الهائل اصطلاح التوراة، إلا أن التوراة تقتصر ــ لوجـــه الحــق ــ على جزء يسير من الكتاب المقدس، هـــي الأســفار الأولـــى منــه المنسوبة إلى النبي موســـى، وهـــي: التكويـــن Cenesis، الخــروج Exudus، اللاويين أو الليفيين Levetieis،العـــدد Numbers، التثنيـــة Deuteronomy ومن الباحثين في العلوم التوراتية، من يدخـــل فـــي أسفار موسى السفر السادس (يشوع).

ونحن بدورنا سنستخدم هذا الاصطلاح (التوراة) في عملنا هذا، تجاوزاً لأن بحثنا سيتركز فعلياً على الأسفار الســـت الأولـــى مـــن الكتاب المقدس.

ومن المهم الإشارة إلى أنه لا يوجد باحث علمي ذو شأن، ذهب وراء القول أنها أسفار موسى، أو أن موسى كتبها،إنما هناك إجمـــاع على أنها ألفت بعد موسى بقرون طويلة، وأنـــها نتيجـــة تصـــانيف مختلفة، لمؤلفين مختلفين مزاجاً ومشرباً. وتدلل مدرسة (فلـــهاوزن Willhawsen) على ذلك بأدلة أهمها وأخطرها أن اسم الإله يختلـــف

---

[1] وليم لانجر (وآخرون) : موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة د. محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت ص٦٦.

فى هذه الأسفار ما بين سفر وآخر، إضافة إلى تكرار القصص فيها، مما يشير إلى عدد من الكتاب لم يلتقوا لتصفية الأمر بينهم، مع فروق واضحة وجوهرية وعميقة فى اللغة وفى الأسلوب بين هذه الأسفار[1].

والتوراة تبدأ تاريخ اليهود منذ فجر الإنسانية على الأرض، فتأتى بشجرة النسب اليهودى من جذرها الأول المسمى فى اللغة العربية (آدم)، ومنه تشعبت الأنساب شعاباً، أهمهم فى التوراة فرع من الشجرة البشرية هو الفرع السامى، بل هو غصن فى هذه الشجرة هو الغصن اليهودى، أو كما يحلو لهم أحياناً تسمية أنفسهم الشعب العبرى، واللغة المنسوبة لهذا الشعب والتى كتب بها أهم أجزاء التوراة،هى المعروفة باللغة العبرية، بينما العبرية هى ما عبرت عنها التوراة بأنها (شفة كنعان) أى لسان الكنعانيين، حتى أن الكلمة آدم، وقد عرفناها قبل التوراة، كلمة كنعانية فينيقية فى مدونات (أوغاريت).

ولنلحظ أن التوراة لم تحاول أن تنكر أن لسانها مأخوذ عن لسان الكنعانيين، ولم تحاول أن تنكر أنه قد سبقهم فى هذه الأرض شعب هو الشعب الكنعانى. وأطلقوا على الأرض فى التوراة أرض الكنعانيين،وأرض الفلسطينيين ويزعم الباحثون أن الكنعانيين رغم أنهم أسبق فى التواجد بفلسطين، فإنهم بدورهم كانوا هجرة قدمت إلى فلسطين من شبه جزيرة العرب حوالى ٢٥٠٠ق.م.

---

[1] موسكاتي: (عن فلهاوزن) سبق ذكره، ص١٥٧.

وإذا كان منهجنا فى البابين السابقين،قد حاول أن يربط بين تطور العبادات فى بلاد الرافدين وبين التطور الاجتماعى والسياسى والشكل الاقتصادى،فإن مثل هذه المحاولة مع التاريخ اليهودى أمر يستعصى على البحث تماماً، لعدة أسباب أهمها:

مشكلة التتبع الزمنى الصادق لأسفار التوراة، التى لم يراع فى ترتيبها منهج محدد.

الغموض الذى أحاط بمعانى الألفاظ التوراتية، ومقصد التوراة الحقيقى منها، وهو أمر فيه جدال وخُلف كبير، بين الباحثين التوراتيين مما أدى ـــ حتى الآن ـــ إلى تباعد شديد فى تفسير النص الواحد، بل وأحيانا الكلمة الواحدة، إضافة إلى أن التوراة تغص بأسماء أماكن قديمة على خريطة المنطقة، يصل عددها إلى الآلاف، لم يستطع عالم جاد واحد حتى اليوم، أن يجزم بالمكان الحقيقى الصادق، ولو لعشر منها فقط، كما لم تعطنا البحوث الأركيولوجية، ولا أى حفريات، دلائل صادقة على موضع قديم يمكن القول المؤكد أنه موضع الآن فى فلسطين المظنون أنها كنعان التوراتية.

وزيادة على ذلك، ونكاية فى إخلاص الباحث الجاد، نجد مدونات التوراة قد ظلت زماناً طويلاً خالية من التنقيط والتشكيل، إضافة إلى اختلاط النطق فى الحروف العبرية ذات المخرج الواحد: الشفاه، الأسنان، الحنجرة، اللسان، الحلق، مع غياب الأزمنة: الحاضر، الماضى الناقص، الماضى التام، المستقبل السابق فى

الصيغة الإخبارية، ناهيك عن غياب الحروف المتحركة، ولـــم يتـم وضع ذلك كله إلا أيام الحشمونيين قبل الميلاد بحوالى قرنيـــن مـــن الزمان، وفق قواعد اللغة الآرامية، مما أدى إلى لبـــس وأخطـــاء لا مزيد عليها، مما يجعل قراءة أى كلمة اليوم فى التـــوراة، موضـــع حذر وشك كبير[1].

إن اليهود لم يكونوا خلال تاريخهم جماعة واحدة مستقرة فـــى مكان واحد إنما كانوا جماعات مختلفة، مرتحلة دوماً إلـــى جـــهات مختلفة، ما بين الرافدين وجزيرة العرب وكنعان وحاران ومصـــر.. الخ، حتى دولتهم التى قامت مع بداية الألف الأول قبل الميـــلاد لـــم تستمر فى الوجود زمناً مناسباً يسمح بنضوج أو تطـــور اجتمـــاعى واضح محدد البصمات، يمكن للباحث تتبعه.

إن عدم الاستقرار فى مكان واحد مدداً طويلة، أدى إلى تغيرات مستمرة فى العقائد والعبادات، التى أخذت تصطبغ مع كل ارتحـــال بألوان متعددة، فجاءت ديانتهم بعد جمعها مزيجاً متنافراً من الألـــوان عديمة الاتساق والتمازج،مما أدى بيبـــاحث متحـــيز لليـــهود مثـــل (إيفارلسنر)إلى القول عما خرج به من دراسة الكتاب المقـــدس: «إن تابوت العهد[2] يعود بنا إلى مساكن آلهة النيل المتنقلة، وآثار الســـحر

---

[1] د، حسن حنفى: سبق ذكره، ص٣٨.

[2] تابوت العهد أو تابوت الشهادة: هو تابوت أمر الإله (يهوه) نبيـــه (موســـى) بصنعه وفق مواصفات محددة فيما تزعم التوراة،بهدف أن ينزل الإلـــه ويســـتقر فيه، فيحمله اليهود معهم أينما حلوا أو ارتحلوا، ليتمكن من الاطلاع على أحوالهم

ترجع بنا إلى مصر كما تذكرنا قصة الطوفان والأرقام الغامضة ببابل، ويصير الإله البابلى جلجامش نمروداً، وتصبح ثيران آشور المجنحة كروبيم العبريين، كما أن أسطورة الجنة وشخصية الشيطان أهريمان، وعالم الملائكة ورؤساء الملائكة تعيد إلى أذهاننا بلاد الفرس، ونتعرف على البعل إله الفينيقيين والكنعانيين فى أسماء إشبعل ومربعل.لقد كان الفلسطينيون الذين يحتمل أن يكونوا قد وفدوا أصلاً من كريت، ينظرون إلى اليمامة أصلاً كإله، أما السمكة التى عُبدت فى عسقلان فتظهر فى قصة يونان»[1].

= عن كثب،ومن ثم يتمكن من مد يد العون الفورية لنصرتهم على أعدائهم،وعند حط الرحال كان هذا التابوت يوضع فى خيمة خاصة سميت خيمة الاجتماع، حيث يجتمع فيها موسى بربه بعيداً عن أعين المتطفلين،وهناك يتشاور الرب والنبى،ويتلقى النبى توجيهات الرب وأوامره،وقد استطاع الفلسطينيون عند دخول اليهود بلادهم، أن ينتزعوا هذا التابوت من اليهود خلال معركة عنيفة،فكانت النتيجة أن الرب الراقد فى= =التابوت لم يميز بين الفلسطينيين واليهود، إنما وقف إلى جانب من يحملونه فى رحلهم وانحاز للفلسطينيين الذين أمكنهم الاحتفاظ بتابوته، فنصرهم على اليهود،ولم يتمكن اليهود من استعادة النصر إلا عندما استطاع داود النبى استعادة التابوت بعد معركة شرسة مع الفلسطينيين، وقد وردت إشارة لهذا التابوت فى القرآن الكريم، حيث قالت الآيات عن شرعية ملك الملك داود:(إن آية ملكه، أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم) (البقرة ٢٤٨).

[1] د. ايفار لسنر: الماضى الحى، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مراجعة د. محمد أبو المحاسن عصفور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١، ص١٤٢.

تاريخ اليهود فى التوراة:

تزعم التوراة أن اليهود هم نسل اثنى عشر ولداً هم الأسباط، أبناء النبى (يعقوب) المسمى (إسرائيل)، ومن هنا سموا (بنى إسرائيل)، وحتى تجعل التوراة من هذا النسل خلاصة البشرية، ومدار حديثها المقدس فإنها تجرى تصفيات عجيبة بين الشعوب، سنلاحظها مع خطونا داخل التوراة.

تبدأ التوراة تاريخ اليهود بالعودة إلى بداية الإنسانية لإنسانيتها على الأرض، فتحكى لنا رواية تقول: إن الله خلق زوجين من البشر، ووضعهما فى مكان أطلقت عليه (جنة عدن)، وإن هذا المكان كان على هذه الأرض ذاتها، لكن الزوجين البشريين ارتكبا خطيئة عظمى،عندما عصيا أوامر الإله فى أمر هائل؟ فقد أكلا من ثمرة شجرة حرمها عليهما!! فثارت ثائرة الإله، وطردهما من هذا المكان إلى مكان آخر على الأرض، شرقى عدن. وأنجب الزوجان البشريان الأوائل،اثنين من الذكور هما هابيل الذى اشتغل بالرعى، وقايين الذى عمل فى الأرض فلاحاً (ويبدو أن ذلك تسجيل قديم لبداية التخصيص فى العمل، وفق ظروف البيئة، والصراع الذى نشأ بين هذين النظامين) وقام الأخوان يقدمان للإله القرابين لإرضائه، فقدم هابيل من لحم غنمه، وقدم قايين من زرع أرضه. وكما سيتضح فيما بعد، فإن الإله كان على ما يبدو من اللواحم، فقبل قربان هابيل،ورفض قربان قايين (والتحيز هنا واضح للبداوة والنظام الرعوى، ولنتذكر أن اليهود بدو رعاة)،مما أوغر صدر

قايين الفلاح، على أخيه الراعى، فقتله، ثم يختفى ذكر قـــايين مـــن التوراة، ليظهر ابن ثالث لأبى البشرية المدعو آدم، هو (شيث)، ومن شيث تناسلت البشرية وتكاثرت على الأرض. (وهكذا كان واضحـــاً أن دور هابيل وقايين لم يكن له أى علاقة بالتكوين، بعـــد أن مـــات هابيل وتبعه قايين وجاءت البشرية من أخ ثالث هو شيث وهـــو مـــا يؤكد أن قصتهما إن هى إلا تسجيل بدئى وتفريـــق بيـــن نظـــامين، أقربهما إلى الإله هو الرعوى).

ومرة أخرى يعصى النسل البشرى ربه، فيقرر الـــرب إفنـــاء مخلوقاته العاصية دوماً، بالطوفان، ورغم تأكيد التوراة المتواتر على ندم الإله المستمر لخلقه البشر، فإنه مع ذلك، يضمر بينه وبين نفســه الإبقاء على بذرة الحياة،فيختار من بين نسل (شيث) فرداً واحداً هـــو (نوح)، ويخبره بقرار الدمار الذى انتواه، ويأمره أن يصنـــع فلكـــاً، ويجمع فيه من كل الأحياء، وأن يأخذ أبناءه معه، وتســـتمر القصـــة فتعلمنا بتفجر الأرض بالعيون، وتفتح أبواب السماء بماء منهمر، مما أدى إلى طوفان عاتٍ، حمل السفينة النوحية بركابـــها، الذيـــن تـــم اختيارهم عشوائياً، بينما فنى كل حى آخر على البســيطة، وانتـــهى الأمر بالسفينة بعد هدوء الغضب الإلهى، إلى التوقـــف فـــوق جبـــل (أرارات)، قرب بحيرة (فان)، إلى الشمال من بلاد الرافدين، داخـــل بلاد أرمينيا.

ثم تأخذ التوراة طريقها فى تمييز النسل اليـــهودى المرتقـــب، كسيد للبشرية وشعب خاص من بين الشـــعوب الأخـــرى، فتقـــول:

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك: ساماً، وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض ـ تكوين٩-١٤-١٥»

ولأن اليهود يعدّون أنفسهم ـ فى الأسطورة ـ أبناء سام، فكان لابد من التصفية،التى بدأت باستبعاد حام وبنيه من التاريخ المقدس، وهو فى التوراة أبو كل من (كوش) أو الزنوج، و(مصرايم) أبو المصريين و(كنعان) أبو الكنعانيين، أصحاب الأرض المطلوب الاستيلاء عليها، لبنى سام. ولا مجال للاستبعاد، إلا أن يأتى حام وبنوه منكراً، لخصته التوراة فى القول: إن نوحاً بعد هبوطه من السفينة، قد شرب خمراً حتى ثمل،وتعرى من ثيابه ثم غاب عن وعيه «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه..فأخذ سام ويافث الرداء.. وسترا عورة أبيهما.. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافث، فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم ـ تكوين٩-٢٠:٢٧».

وواضح من هذه التصفية الأخلاقية، والتى كان الملام فيها أصلاً ـ حسب الرواية التوراتية ـ نوح ذاته، القصد باستبعاد الكوشيين الأحباش والمصريين من التركة المقدسة، مع التركيز على استبعاد كنعان بن حام بوجه خاص مع خصه باللعنة والعبودية لسام، رغم أنه لم يشاهد العورة النوحية ولم يرتكب ذنباً، إنما كان الذنب

ذنب الجد الذى سكر، وذنب الأب حام الــذى شــاهد هــذه العــورة وعاينها.

ثم تمطر التوراة بركاتها على الابن سام بالتحديد والخصــوص، بحسبانه الجد البعيد لليهود، ثم تركز جهودها بعــد ذلــك، وطــوال أسفارها حول نسله المجيد، فتخبرنا أنه أنجب كل بنى عابر، وتعــدد بنى عابر بأنهم: (عيلام) أبو الإيرانيين، و(آشور) أبــو الرافديــين، و(ارفخشد) أبو الأرمينيين، ثم تصطفى من بينهم (أرفخشــد) الــذى أنجب شالح، وأنجب شالح عابر، وأنجب عابر فالج، ويقطــان أبــو حضرموت(ولا ندرى سراً لهذا الخلط بين أناس يعيشون فى أقصــى الشمال، فى (أرمينيا)، وأناس يعيشون فى أقصــى الجنــوب، فــى (حضرموت)؟!

(عند مراجعتنا للبروفة الأولى لطباعة هذا الكتاب كنا قد انتــهينا من كتاب: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول ــ دار سينا ــ ونظن أننا قد كشفنا فيه السر وراء هذا الخلط).

أما فالج أخو يقطان، فقد كان هو الفرع المبارك فــى الشــجرة المباركة فهو جد النبى (إبرام) أو (إبراهيم) الــذى أنجــب بــدوره إسماعيل وتقرر التوراة استبعاد إسماعيل، فتقول: إن إبراهيــم قــد أنجبه من جاريته هاجر، وأن الأمر لم يرق لسارة زوجة إبراهيــم، فأمرت بطرد الجارية وولدها فأخذهما إلــى باديــة مــن البــوادى، وتركهما هناك، حيث ترعرع إسماعيل واستوطن فى تلك البــوادى

نهائياً، تاركاً الأرض للنسل الآتى،فقد أنجبت سارة ـــ حسب الرغبــة التوراتيةـــ إسحق الذى تم استبقاءه فى المصفاة التوراتية ليكون جـداً لليهود.

وأنجب إسحق ولدين هما: (عيسو) البكر، ثم (يعقوب)، وحسـب منطق القواعد السامية، كان المفترض أن يكون البكر (عيسو)، هــو وريث النبوة والأرض والأملاك، لكن الذى حدث فى التــوراة هــو العكس، بعد أن استخدمت مصفاتها مرة أخـــرى لاســتبعاد البكــر، واستبقاء آخر العنقود (يعقوب)، الذى سيكون هــو (إســرائيل) أبــو الأسباط أو بنى إسرائيل، وقد أوردت التــوراة ذلــك فــى أسـلوب طريف، فى قصة أطرف، لا يصح تجاوزها.

تقول القصة:

> فكبر الغلامان، وكان عيســـو إنســاناً يعرف الصيد، إنسان برية، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب إسحق عيســو، لأن فى فمه صيداً، وأما رفقة (الأم) فكانت تحب يعقوب..وحدث لمــا شــاخ إســحق وكلت عيناه عن النظر،أنه دعا عيسو ابنــه الأكبر فقال: هأنذا، فقال: إننى قد شـــخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتــك، جعبتك وقوسك، واخـــرج إلـــى البريـــة،

وتصيد لى صيداً، واصنع لى أطعمة كما أحب، وأتنى بها لآكل، حتى تباركك نفسى قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة.. فكلمت يعقوب ابنها قائلة.. يا بنى اسمع لقولى.. اذهب إلى الغنم، وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لرفقة أمه: هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة.. فأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة.. وألبست يعقوب ابنها الصغير، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها، فدخل إلى أبيه وقال يا أبى فقال ها أنذا من أنت يا بنى، فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، فقد فعلت كما كلمتنى، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك فقال إسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى؟

فقال: إن الرب إلهك قد يسر لى؟!!

فقال إسحق ليعقوب:تقدم لأجسك يا بنى، ألنت هو عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه، فجسه.. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه، فباركه.. فقال له إسحق أبوه: تقدم وقبلنى يا بنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب،فليعطك الرب من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر،ليُستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين، وحدث حين فرغ إسحق من بركة يعقوب.. أن عيسو أخاه أتى من صيده.. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرة جداً، وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً يا أبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. (تك ٢٧-١:٣٥)

حقيقة، إن هذا النص ذكرى وتسجيل واضح للتطور التـــاريخى والاجتماعى فقد قرر انتهاء زمن الصيد والمجتمع غـــير المســتقر، وظهور المجتمع المستقر (عيسو كان إنساناً يعرف الصيــد، إنســان برية، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام)، ورغم تمسك الأب بالصيد والنظام القديم، فقد كان لابد من الانتقال ولو بالخديعة.

المهم أن التوراة وهى تجرى التصفيات النهائية بين الشـــعوب، لتصل إلى الشعب اليهودى، تجعل يعقوب أهــم آبـــاء اليــهود بعــد إبراهيم، نتيجة حدث خاص تعرض له يعقوب، يفسر لنا سر تمســك الإله بهذا الشعب كمختار له دون البشر،إذ أن يعقوب التقى بـــالرب ودخل معه فى معركة انتهت لصالح يعقوب،أو كما تقول التوراة:

> فبقى يعقوب وحده،وصارعه إنســـان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقـــدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخــذ يعقوب فى مصارعته معه، وقال أطلقنـــى لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لــم تباركنى، فقال له: مـــا اسـمك؟ فقــال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيمــا بعــد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مــع الله والناس وقدرت، وسأله يعقـــوب وقـــال: أخبرنى باسمك، فقال: لماذا تســـأل عـــن اسمى، وباركه هناك، فدعا يعقوب اســـم

> المكان فينيئيل، قائلاً: لأنـــي نظـــرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي، وأشرقت لــــه الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع علـــى فخذه، لذلك لا يأكل بنو إســـرائيل عــرق النسا الذي على الفخذ إلى هذا اليوم،لأنـــه ضرب حق فخذيعقوب على عرق النســا. (تك٣٢-٢٢:٣٢)

وهكذا تحول الاسم (يعقوب) إلى (إسرائيل)، أو (صراع إيـــل) أو مصارع الرب أو الذي صرع الإله، وأنجب (إسرائيل) اثنى عشر ولداً هم الأسباط بنو إسرائيل، وكان أشهرهم أصغرهم سناً وأكـبرهم شأناً (يوسف).

أما مصدر شهرة يوسف في التوراة فهو أنه كان جميلاً جمـــالاً فاتناً؟! والثاني أنه كان كثير الأحلام؟! والثالث أنه كان مفسراً أيضـــاً للأحلام؟! مما أثار موجدة إخوته الذين كادوا له، حتى انتهى بكيدهـم عبداً في بلاد مصر لكن قدرته على التبصير وقـــراءة الطـــالع فـــي الأحلام، أدت إلى ذيوع صيته في البلاط الملكي، حتى تمكن بقربــــه من صاحب العرش أن يصبح وزيراً لخزانـــــة المصريـيـــن،وبـــهذا المركز تمكن من استجلاب أبيه وإخوته إلى مصر، في وقت حل فيه الجفاف بالأرض، وفي مصر عاشوا زماناً تكاثروا فيــــه وتناســلوا وعلا شأنهم.

لكن الحال لم يستمر على حاله، فقلب لهم الفراعنة ظهر المجن، واتخذوهم عبيداً مسخرين فى الأعمال الشاقة، حتى ظهر (موسى) النبى وهو فى زعم التوراة أحد أحفاد سبط (ليفى) أو (لاوى) أحد أخوة يوسف وهو الذى قدر له قيادة اليهود للهرب من مصر إلى كنعان، فى أشهر الرحلات فى التاريخ، تلك المسماة (رحلة الخروج).

وقد قدر لهذا النبى حسبما جاء بالتوراة أن يكون صاحب مغامرات كبرى شهيرة، منذ ميلاده وحتى مماته، فقد ولد فى ظروف صعبة، كان مطلوباً فيها بأمر فرعون مصر، قتل من يولد فى هذا العام من ذكور، فألقته أمه فى اليّم لكن أقدار (الميلودراما) ساقته إلى قصر فرعون حيث عثرت عليه ابنة فرعون، فاتخذته لها ربيباً، لكنه كان يعرف أصله العرقى، مما دفعه يوماً للانتصار لأحد اليهود من بنى جلدته، فقتل بسبب انتصاره لعصبيته مصرياً دون أن يتحقق حتى من موضع الحق، فكان أن طلبه القانون للقصاص فهرب إلى بلاد تسمى (مديان)، حيث التحق هناك بضيافة كاهنها المدعو (يثران)، وصاهره فتزوج ابنته،وهناك قابله رب اليهود فى جبل أسمته التوراة جبل الله (حوريب)، حيث أمره بالعودة إلى مصر، مدعماً بعدد من الخوارق، ليقود شعبه المختار من مصر فى رحلة خروج، أو رحلة عودة إلى كنعان.

ويظن المؤرخون أن بداية بنى إسرائيل الحقيقية،هى مع رحلة الخروج حوالى ١٢٠٠ق.م، بعد أن قضوا فى مصر حوالى أربعة

قرون، لكن موسى لم يحظ بدخول أرض كنعان، حيث تخبرنا التوراة أنه قد مات ودفن وهو من أرض الميعاد قاب قوسين أو أدنى، وخلف على القيادة رجلاً دموياً، هو (يشوع بن نون)، الذى اشتهر بالقسوة المرعبة، وبمعجزات كالمعجزات الموسوية كفلق البحر، لكنه زاد عليها بالتخصص فى معجزات يشوعية، منها إيقاف الشمس والقمر فى مكانيهما،حتى يتمكن من الانتصار على أعدائه.

ومن بعد يشوع، استمر اليهود يعيشون زماناً،على هامش حياة الكنعانيين فى الوقت الذى يزعم فيه الباحثون قدوم أقوام إيجية من جزيرة كريت، باسم الفلسطينيين، ليستوطنوا الساحل الكنعانى، ويكسبوا أرض كنعان اسمها (فلسطين)، مما خلق أمام اليهود عقبة جديدة، فبدأ صراع طويل بين الشعبين، استطاع اليهود بعد انتصارهم فيه أن يقيموا لهم ملكاً ودولة، كان أول ملوكها (شاؤول) ثم تلاه على العرش الملك (داود)، الذى استطاع أن يكسر شوكة الفلسطينيين بشكل حاسم، مما أتاح للدولة الناشئة الاستقرار، وهيأ لوريثه الملك (سليمان) الفرصة ليبلغ بالدولة أوج شهرتها.

ويقول (موسكاتى) إن داود «أعاد إلى إسرائيل حظها الضائع وكان جلوسه على العرش حوالى عام ١٠٠٠ق.م وكان قد بدأ بتكوين دولة صغيرة خاضعة للفلسطينيين، ولكن مقدرته فى الحرب والسياسة معاً أكسبته الاستقلال، وأقامته ملكاً على إسرائيل مكان أسرة شاؤول وبالاستيلاء على القدس، واستعادة تابوت العهد، صار للدولة الناهضة من جديد، مركزها السياسى والدينى.. وكان سليمان

بن داود.. شديد الاختلاف عن أبيه، فقد أحدث تغييراً جوهريا في كل حياة المملكة وأعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان، في الشرق الأدنى القديم، فالأبهة والترف في البلاط، وكثرة الزوجات والجوارى التى كانت تتطلبها اعتبارات الدبلوماسية والسمعة، والتى قدر كما تقول التوراة أن تشغل قلب الملك، ثم ازدياد مؤامرات القصور.. اضطرت سليمان إلى إقامة نظام من الضرائب،ألقى على شعبه عبئاً ثقيلاً.. وكان إنشاء المعبد الكبير في أورشليم القدس، أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة، وقد ضم هذا العمل الفخم عناصر قيمة من كنعان فينيقية وغير فينيقية، وكذلك من مصر وأرض الرافدين.. وانتهى نفوذ العبريين بموت سليمان»[1].

وقد قيض للملك سليمان، أن يحوز في مقدسات المنطقة وتاريخها، شهرة لا تضارع، ربما لأنه أشهر ملوك اليهود، وربما لأنه ضرب بالأنبياء المتنبئين عرض الحائط ـ كما تقول التوراة ـ ولم يسر وراء الشعوذات وركز اهتمامه في الشئون الدنيوية وفق خطط عقلانية، فتغنوا بحكمته وربما أضاف إلى ذلك ميوله الفنية التى دفعته إلى بناء قصره، والهيكل وفق أحدث الطرز المعمارية، فجلب لهذا الغرض فنانين من مختلف الأقطار المحيطة بدولته،

[1] موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٤٣،١٤٤.

وأشرف بنفسه على عمليات البناء والنحت والتشكيل والتجميل والنقش.

أما الباحث أحمد سوسة فيقول: «أما الوصف الذى اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات، التى درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التى تبجح بعظمتها، كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسيادها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة فى البذخ، والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكانياته الاقتصادية.. فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية، طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشاً مصرياً صغيراً احتلها له وسلمها إليه، مهراً لابنته».

ثم يتساءل (سوسة): «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان، صورة تفوق الواقع بكثير.. فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال،بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم».

ويجيب (أحمد شلبى) على التساؤل، فيوضح الأسباب التى أدت إلى هذه الشهرة بقوله: «إن أمور مصر فى عهده كانت مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة

الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئا من حرية الحركة والنشاط، والتبسط فى ممارسة السيادة»، أما ما جاء عن «قصة ملك سليمان وحكمته»، التى أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع،على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، فى وصف رخاء عصر سليمان، موله بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى،بل والإسلامى، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة.. لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات.. أما مملكته فهى رهينة تتجاذبها مصر وفينيقا، وترجع أهميتها فى معظم أمرها، إلى ضعف مصر المؤقت[1]. (ومن المناسب أن نوضح من جانبنا أنه لم يكتشف نص واحد حتى الآن، لا فى مصر، ولا فى نصوص الرافدين، يشير من بعيد أو قريب، إلى ملك باسم سليمان أو داود أو شاؤول، وهو أمر غريب بالقياس إلى ما ادعته التوراة عن شهرة المملكة السليمانية!!).

---

[1] د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، ط٢، دمشق، ص٢٦٩،٢٩٧، وقد لحظنا أن د. سوسة اقتبس هذه المادة جميعها عن د. أحمد شلبى فى كتابه: مقارنة الأديان، اليهودية نشر مكتبة النهضة المصرية، ط هـ القاهرة ١٩٧٨،ص٥٦. وأن د.شلبى بدوره قد اقتبسها عن ويلز فى Wells: Hsitorgof the world, 93 the out line of History vo L4. PP. 204-207.

والمهم أن هذا النفوذ السليمانى المزعوم، قد انتهى بانقسام المملكة من بعده إلى دويلتين: واحدة فى الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأخرى فى الجنوب سميت يهوذا وعاصمتها أورشليم،ولم تلبث المملكة الشمالية أن وقعت فى قبضة الرافديين الآشوريين، بعد أن سحقها العاهل الآشورى سرجون الثانى،بينما انتهت المملكة الجنوبية يهوذا إلى المصير ذاته على يد العاهل البابلى الكلدانى نبوخذ نصر الثانى، وذهب ألوف من كليهما أسرى إلى بابل وآشور، وهناك ظلوا فى الأسر حوالى أربعة قرون.

وفى العقود الأخيرة من القرون الأربعةظهرت فى الأفق دولة كبرى جديدة فى إيران هى دولة الفرس، بقيادة رجل حديدى غير عادى هو (كورش)، الذى اتجهت طموحاته إلى الاستيلاء على بلاد المشرق وتكوين إمبراطورية كبرى، وكان لحنكته السياسية دورها الحاسم فى تحقيق أحلامه، فقد قبل عروضاً بتعاون اليهود وعلى رأسهم (أشعيا) و(إرميا)، بموجب شروط ومطالب محددة لليهود، وعلى رأسها تحريرهم من الأسر وعودتهم إلى أرض كنعان لإقامة هيكلهم ودولتهم مجدداً، مما انتهى بفتح أبواب بابل للفرس.

و«يخبرنا المؤرخ اليهودي يوسفيوس[1]أن كورش أرجع كل انتصاراته إلى الرب الذى يؤمن به اليهود،لذلك صمم على إعادة بناء

---

[1] يوسفيوس:Filavius Josepheus أشهر المؤرخين اليهود فى القرن الأول الميلادى وينحدر من ناحية الأم من سلالة الأمراء الحشمونيين،الذين حكموا فى فلسطين قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، وهم الذين قاموا بضبط وتنقيط كلمات الكتاب

بيت له فى القدس..وتشير المصادر اليهودية إلى أن كورش قام بإعادة اليهودالمرتحلين من بابل إلى القدس مجددا خلال العام الأول من احتلاله لها، وقد فرح اليهود بذلك واعتبروه المسيح المنتظر ونقرأ فى سفر إشعيا:هكذا يقول الرب لمسيحه كورش.. الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكا..لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك إليه، إسرائيل (إشعيا٤٥-٣) ويقول العهد القديم بأنه تزوج إستر اليهودية وجعلها ملكة على بابل»[١].

ورغم أن (قورش Cyrus) قد حاز فى التوراة على كل اصطلاحات الود، فأصبح هو (المسيح) وهو (راعى اليهود ــ إشعيا٤٤-٢٨)، وناداه رب اليهود باسمه، فإن سفر إشعيا يؤكد أن (قورش) لم يعرف رب اليهود (إشعيا٤٥-٤،٥)، إلا أن المهم فى الأمر هو إصدار قورش سنة ٥٣٨ ق.م، قرارا برجوع اليهود إلى

= المقدس، وفق قواعد اللغة الآرامية، ويوسفيوس يعد من ناحية الأب فردا فى السلك الكهنوتى، وقد ولد فى فلسطين فى الموضع المزعوم أنه (أورشليم) حوالى عام ٣٧ق.م، وقاد ثورة كبرى لليهود ضد الاحتلال الرومانى، واعتقل،ثم أفرج عنه سنة ٧م، وبعدما عاش فى عاصمة الامبراطورية (روما) يكتب ويؤلف، حتى مات هناك عن ٩٨ عاما، وأهم ما تركه لنا مؤلف من سبعة أجزاء يروى تاريخ اليهود النضالى، بعنوان (حروب اليهود) وقد كتبه باللغة العالمية آنذاك،الآرامية، كما ترك لنا (تاريخ اليهود القديم) فى عشرين جزءا من بداية الخليقة وحتى عام ٦٦م.

[١] عبد الحميد العلوجي وآخرون: شخصية نبوخذ نصر الثاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢، ص٥٨، ٥٩، ٦٤.

الأرض المقدسة، وإعادة بناء معبد أورشليم الذى ظل قائماً حتى دمره الرومان نهائيا حوالى عام ٧٠م.

الآلهة التوراتية:

وهكذا لا يعود مستغرباً أن نجد الدين اليهودى قد مر بأطوار لا يحكمها منطق محدد، قدر ما تحكمها ظروف أخرى أهمها التأثر بمختلف عقائد شعوب البلدان التى عاش فيها اليهود أزماناً طويلة، سواء فى البلاد الكنعانية أو المصرية أو الرافدية، أو أى موطن آخر استقروا فيه بضعاً من الزمن، ومن هنا يمكن لأى باحث ــ بقليل من الجهد ــ أن يجد فى التوراة مآثر مصرية وأخرى رافدية وثالثة فينيقية، أو أن يجد طبيعة التأليه تتضارب ما بين التأثر بآلهة الخصب والزرع والرى، وبين آلهة الصحراء والجبال والبراكين، وبين فجاجة الاعتقادات والطقوس الابتدائية، وبين قمة التطور فى مفهوم الألوهية نحو المطلق، وكله فى آن واحد، يتناثر دون تنظيم محدد على صفحات التوراة فيشكل خليطاً عجيباً دونما رابط ولا زمام، ولا مراعاة لمنطق التطور الزمني أو الاختلاف المكاني، ولا يبقى أمام الباحث سوى أن يلقى بنفسه وسط هذه الأحبولة ذات المائة وجه والألف لون.

ولا نزعم أنه بإمكاننا ترتيب الأمر كله دفعة واحدة، وإلا كان ذلك سذاجة مفرطة، وإنما غاية ما نزعمه هو الإخلاص فى المحاولة

مع الإشكاليات التى قد تعترضنا، على أن تتم هذه المحاولة على خطوات، مع كل خطوة نخطوها فى بحثنا، فى هذا التل المختل من الأحاجى والطقوس والاعتقادات والنظم والتاريخ، الباطل منها والصحيح.

وسيراً مع خطتنا التى اتبعناها فى البابين السابقين، سنحاول فهم طبيعة التأليه فى التوراة، وهنا يقول لنا (إيفار لسنر): إن سفر التكوين ينسب جزءاً من عملية الخلق إلى إله يدعى (إلوهيم Elohim) بينما ينسب جزءاً آخر إلى إله يدعى (يهوه Jehovah)[1] ورغم تبسيط (لسنر) المسألة وتسطيحها، فإننا سنقف مع هذين الإلهين (إلوهيم) و(يهوه أو جاهوفاه) وقفة تفصيلية بعض الشيء:

والاسم (إلوهيم) هو جمع للاسم (إيل) أو (إل) الذى عرفناه عند الساميين فى الرافدين والهلال الخصيب، وهو الإله الذى استمر وجوده في التوراة متواتراً، طوال عصر الآباء البطاركة من (إبراهيم) النبى، والممتد عبر أبنائه وأحفاده، حتى ظهور النبى (موسى)، ومع (موسى) يبدأ (يهوه) فى الظهور، بعد أن التقى بموسى فى (مديان)وهو هارب من مصر،بعد جريمة قتله المصرى ظلماً، حيث قال له «ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شيء، وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج٦٣-٣).

---

[1] لسنر: سبق ذكره، ص١٤٤،١٤٥.

وهنا قصد واضح من التوراة للتفرقة بين عهدين،عهد عُبد فيه الإله باسم (إيل) طوال عصر الآباء الأول، ثم عصر جديد يبدأ مع موسى يظهر فيه الإله باسم (يهوه) وبما أن المفترض في سفر التكوين كقصة للخليقة، أن يكون أقدم بعصور وأزمنة بعيدة عن عهد موسى، ويعود إلى عصور موغلة في القدم، فإن (يهوه) يظهر فيه ليقوم بجزء من عملية الخلق، في عدة مواضع، مما حدا بالباحثين إلى الظن أن هذا السفر قد كتب بعد عهد موسى بزمان طويل،أما نحن فنرى في ذلك تأليفاً بين قصتين للتكوين إحداهما قصة عتيقة قام بها بدور البطولة مجموعة من الأبطال من الآلهة القديمة عبرت عنهم التوراة باسم الجمع (إلوهيم)،كل منها (إيل)، وهى الآلهة التى رافقت العهد الإبراهيمي في التوراة، وقصة أخرى أحدث، قام فيها بدور البطولة الإله (يهوه)، الإله الذى أرفقته التوراة بالعهد الموسوى وما بعده حتى اليوم.

وقد سبق وعلمنا أن (إل) كان اسماً جلالياً منتشراً على نطاق واسع بين جميع الشعوب السامية، وعرفته القبائل السامية الضاربة على سواحل المتوسط الشرقية، ووصفته ملحمة البعل الأوغاريتية الفينيقية بأنه «إيل أبو السنين» و«خالق الخلائق»،«ثور ايل»، «مقام إيل عند نبع النهرين»[1] وهى إشارات تدل على مستوى تطورى رفيع بلغه (إيل)، حيث تحول من إله فرد ضمن مجمع إلهى، إلى أب رفيع الشأن وإلهٍ للزمان (أبو السنين)، وتدل أيضا على مستوى رفيع

[1] د. فريحة: ملاحم.. سبق ذكره، ص١١٨:١٢٥.

من التجريد لدى هذه الشعوب،مما أدى به إلى التحـــول إلـــى رمـــز جلالى يطلق على أى معبود، ومن إله بذاته إلى اسم مجـــرد يعنـــى الإله أو الله، مما انتهى بالباحثين إلى اعتبار (إل) علما إلهيا عـــرف فى كل العبادات السامية بلا استثناء[1]. خاصة بعـــد أن تـــأكد لـــدى الباحثين فى آثاريات جزيرة العرب أن (إل) كان معبـــودا معروفـــا قديما ومنتشرا فى كل بقاعها[2].

ورغم أن (موسكاتى) يرى أنه كان شخصية إلهية غامضـــة[3] فإن (ديتلف نيلسن)الباحث والآثارى فى آثاريات جزيـــرة العـــرب، يؤكد أن هذا الإله كان متواجدا باستمرار فى جميع النقـــوش التـــى عرضت له، وأنه كان ذا دلالة عامة (اسم جلالة) لكن (نيلسن) يشـــير فى الوقت ذاته، إلى أنه قد عرضت له نقوش، ظهر فيها (إل) كـــدال على إله خاص محدد مفرد[4] مما يدعونا إلى افتراض أنه ابتدأ كإلـــه خاص، ذى دلالة طبيعة محددة، مثل (آن) السومرى،نظنها الســـماء،

---

[1] د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج٢، ص١٧.

[2] ديتلف نيلسن: الديانة العربية القديمة، بحث ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مع مؤلفين آخرين، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهرة، ١٩٥٨، ص١٢٧.

[3] موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٢٧.

[4] نيلسن: الديانة، سبق ذكره، ص ١٨٤.

ثم تحول إلى رئيس لمجمع إلهى، ثم مع التطور انتهى إلى اسم جلالى ذى دلالة عامة[1].

ورغم أن البادى فى سفر التكوين التوراتى، أن (إل) إله مفرد ذو دلالة محددة، كما فى التأكيد أن «إيل إله إسرائيل» (تكوين ٢٣-٢٠)، وأنه كان له موضع مقدس حمل الاسم السامى (BIT)، فأصبح هو «إله بيت إيل» (تكوين ٣١-١٣)، فإن الباحث فى التوراة يجده فى مواضع أخرى كثيرة، اسماً ذا دلالة عامة، وأنه استخدم للدلالة على عدد من الآلهة كل منها (إل) أو إله، تعاصرت فى العهد الإبراهيمى، وكونت مجمعاً كان له إله رئيس أو كبير مميز بلقب (الرب الإله)، ويمكن أن نفهم ذلك من نصوص عديدة، منها مثلاً:

---

[1] من العجيب حقاً أن نلاحظ تواجد الإلهين (إيل) و(يهوه) في عبادات جنوب جزيرة العرب، ونلحظ ذلك في تركيب قوائم الملوك، التي عادة ما يتألف فيها اسم الملك من ملصقين أحدهما اسم الإله مضافاً إلي النعت الذي يفيد الانتساب إلي الإله أياً كان لون هذا الانتساب، وفي القوائم الملكية التي أوردها العلامة (هومل) عن الأركيولوجي (جلازر) وربما عن آخرين معه، أسماء لملوك معينين تحمل أسماء (إيلي يبيع، وقهي إيل، إيل معدي) وفي قوائم ملوك قتبان وسبأ وهمدان نجد أسماء جديدة، يلصق فيها اسم الإله الجديد (يهو)، مثل: (شومو هو عليا، يوها أمين يوها نعيم، يهو أمين، يهو رجيب، يهو ضبيع). ارجع إلي قوائم الملوك كما أوردها (فرتز هومل) في (التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب تاريخ العرب القديم بالاشتراك مع نيلسن وآخرين) ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.صفحات ٦٥: ٦٨، ٧٧، ٧٩.

«وسمعا (آدم وحواء) صوت **الرب الإله** ماشيا فى الجنة»
«فنادى **الرب الإله** آدم وقال: أين أنت؟»
«فقال **الرب الإله** للمرأة: ما هذا الذى فعلت؟»
«فقال **الرب الإله** للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت»

(تكوين-٣)

أوما نجده فى النص الذى يحكى عن موقف الرب الإله من أبوى البشر، بعد أن أكلا من ثمرة المعرفة المحرمة بأمر الإله،وخشية الرب الإله أن يتطاول آدم وحواء أكثر،ويتناولا من ثمرة الخلود ويعيشا إلى الأبد كالآلهة، يقول النص: على لسان الرب:

هو ذا الإنسان قد صار **كواحد منا** عارفاً الخير والشر، ولعله يمد يده الآن ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويحيا إلى الأبد.

والتعبير (كواحد منا) يشير بوضوح إلى مجمع من الآلهة الخالدة، يقف فيه الرب الإله متحدثاً،ومثل هذه الإشارات كثير التكرار فى التوراة، ومنها مثلاً عندما خشى الإله البشر،الذين قاموا يبنون برجاً صاعداً إلى السماء،وحتى لا يقلقون راحته السماوية، فقد

بلبل ألسنتهم وفرقها كى لا يفهم بعضهم بعضا، ويتفرقوا عن البناء، فقام يقول:

هلم ننزل ونبلبل ألسنتهم
(تكوين١١-٥:٨)

وغالباً ما حددت التوراة الإله فى مجمع من ثلاثة شخوص، كما فى قصة ذهاب الرب إلى النبى إبراهيم، لزيارته وتبشيره بغلامه إسحق، وإبلاغه بقرار تدمير أهل لوط ابن أخيه فى (سدوم) و(عمورة)، الذين تفشى بينهم داء الشذوذ الجنسى. تقول التوراة:

وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر، وإذا **ثلاثة رجال** واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: **يا سيد** إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك، فلا تتجاوز عبدك
(تكوين١٨-١:٣)

والنص واضح تماماً، فالرب هنا يظهر فى صورة ثلاثة رجال، استقبلهم إبراهيم، ثم خاطبهم بصيغة المفرد: ياسيد، عينيك، عبدك، ونتابع النص:

ثم قام **الرجال** من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشيا **معهم** ليشيعهم، فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟.. وانصرف **الرجال** من هناك، **وذهبوا** نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب

(تكوين١٨-١٦:٢٢)

مرة أخرى، الرب هنا مجموعة رجال فى واحد، لكن المربك فى هذا النص القول أن هؤلاء الرجال الآلهة ذهبوا نحو سدوم ليدمروها، بينما بقى الرب مع إبراهيم، ولا تفسير لهذا الأمر سوى أن الذى بقى هو كبيرهم الرب الإله، ويؤكد لنا هذا الفهم، أن الذين ذهبوا لتنفيذ المهمة اثنان فقط، فالنص يتابع قائلا:

فلما **رآهما** لوط، قام **لاستقبالهما** وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: **يا سيدى** ميلا إلى بيت **عبدكما**.. واغسلا أرجلكما..

(تكوين١٩-١:٢)

ومع ذلك فإن مزيدا من الإمعان فى التوراة، يرفع عدد آلهة المجمع، حيث نجد عددا لا بأس به من الآلهة، فهناك: (إل صبلوت) إله الجنود، و(إله عليون) الإله العلى، و(إل شداى) الإله الشديد أو القدير، و(إل شلم) إله السلام، و(إل جبور)، و(إل رحبوت) و(إل

يراه) ويمكن لخبرة الباحث فى تاريخ الديانات وفى الميثولوجـي، أن يشتم فى هذه الأسماء، أسماء لآلهة مواضع ومناطق وظواهر طبيعية فترجمة (إل صباوت) يمكن أيضا أن تكون (إله الظبـاء) أو الإلـه الظبى أو التيس، وهو إله معروف فـى تـاريخ الديانـات كرمـز للخصب، و(إل عليون) يمكن أن يكون إله مكان مرتفع كقمة جبل أو بركان أو ما شابه ذلك و(إل شداى) يمكن أن يترجم إضافة إلى كونه الشديد، إلى إله الشذى أو الرائحة أو الريح (الدال تختلط بالذال فـى الساميات)، و(إل يراه) رمز واضح لإله الماء والـرى والخصـب، وينطق أيضا (يراخ)، والمصريون يقولون:(المطر يـرخ) ويتضـح للمدقق فى التوراة أن إل يراه كان إلها لبئر أو لعين من الماء فـهو يلتقى بهاجر «على عين الماء التى فى طريق شور»(تكويـن١٦-٧) ويأمرها بالرجوع إلى سيدتها فدعت اسم الرب الذى تكلـم معـها: «أنت إيل رئى»، والمعنى أن هاجر تعلم أن هناك أكثر مـن إلـه، فميزت الإله الذى قابلته «الذى تكلم معها» وعرفت فيه إله الـرى، بأنه «أنت إيل رئى»، وقد اكتشفت أنه إله الرى بـالذات، والسـبب «لأنها قالت: أهاهنا رأيت بعد روية» (تكوين١٦-١٣) أى ارتويـت بعد عطش كاد يكون موتا (روية)، ثم إنها صادفت ذات الإلـه بعـد ذلك عندما أخذها إبراهيم النبى بأمر زوجته سارة إلى البرية، حيـث تركها هناك مع طفلها إسماعيل، حيث تظهر علامات إله الخصـب مرة أخرى حين «طرحت الولد تحت إحدى الأشجار» (تكويـن٢١-١٥)، وأخذت تبحث عن الماء، «وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء» (تكوين٢١-١٩)،لذلك«دعت البئر بئر لحى رئى»(تكويـن ١٦-١٣) ولعل النص فى الأصل«دعت البئر لهى رئى» أى إله الرى والماء.

ويظهر الإله (لهى رئى) فى أكثر من موضع فى العهد الإبراهيمى، لكن مع تداخل يهوه، الذى لم يظهر إلا فى العهد الموسوى،بيد الكاتب المتأخر الذى خلط بين العهدين،وذلك فى قصة تضحية إبراهيم بابنه لربه،وطقس التضحية يرتبط عادة بآلهة الخصب والرى،طلباً للغيث والرى،كما يرتبط بطقس الجنس الجماعى،والموضع الذى ذهب إبراهيم ليضحى فيه بولده يأتى فى النص القائل«فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يراه» (تكوين٢٢-١٤)،وهنا يرد (يهوه) بمعنى الإله مضافاً إلى(يراه) فهو إله الرى، وفى أكثر من موضع نجد اسحاق بن إبراهيم يسمى بئر هذه المنطقة «بئر لحى رئى»، أو ما افترضنا «بئر لهى رئى» أى إله الرى وليس إله الرؤية بمعنى البصيرة (التكوين٢٤-٦٢-٢٥-١١).

وهناك أمر يرتبط بهذا الإله هو إشارة المؤرخين العرب والمسلمين إلى هبوط النبى إبراهيم مع هاجر وولدها إسماعيل جزيرة العرب، لكن التوراة لم تشر إلى هذا الأمر بوضوح،وإن كنا قد استطعنا أن نعثر على متفرقات بالتوراة، يمكن أن تربط بين إبراهيم وجزيرة العرب، وأثبتناه بالأدلة فى بحثنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول ـ سينا للنشر)، ويرتبط أيضا بهاجر وبالإله الذى التقت به عند البئر (إله رئى)، وبطقس ذبح الابن الذى كاد أن يقوم به النبى إبراهيم، (وهو أحد طقوس عبادة الخصب، حيث كانت التضحية بالابن البكر شرعة واجبة فى عبادات الخصب بطول

المنطقة وعرضها فكان العباد يذبحون البكر ويحرقونه في حجر الإله).

والتوراة تورد الأمر الإلهى لإبراهيم بقولها: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق، واذهب إلى أرض المريا،وأصعده هناك محرقة» (تكوين٢٢-٢) لذلك «دعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه،حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى» (تكوين٢٢-١٤).

والنص يعنى أن الرب أمر إبراهيم بذبح ابنه إسحق، وهو ما لا يتفق مع شرعة التضحية بالبكر، والبكر هو إسماعيل، والعرب والمسلمون يؤكدون أن الذبيح كان إسماعيل، وهو ما يتسق مع تلك الشرعة القديمة، وإذا كان إسماعيل فى التوراة، وفى كتب التراث الإسلامى هو الجد البعيد لعرب الجزيرة،فإن ذلك كله يذهب بنا إلى جزيرة العرب، فى رحلة إبراهيم مع هاجر وإسماعيل حيث تركهما هناك، لكن بعد أن كاد يضحى بولده فى (أرض المريا) لذلك سمى الموضع (يهوه يراه) وأنه يسمى حتى اليوم، أو بتعبير التوراة: يقال اليوم (جبل الرب يرى)، وهو ماتعنيه تماماً اللفظة العربية (المروة)، التى تتركب من ملصقين هما (إل=إله) و(مروة) أو (مروى) وتشير إلى الرى والخصب.

ولم تزل (المروة) موضعا مقدسا فى بلاد الحجاز، باعتقاد أن قدسيته موروثة منذ أيام النبى إبراهيم، وشعيرة الهرولة بين الصفا

والمروة أحد شعائر الحج الأساسية، ويتبعه ضمن الطقوس شعيرة الذبح.

وتقول كتب التراث الإسلامى: إن الصفا والمروة كانا مقدسين قبل الإسلام بزمان وظلا مقدسين فى العصر الجاهلى، وكان الجاهليون يهرولون بينهما لأنه على الصفا كان الصنم (إساف) أو (آصاف) أى يوسف، وأن على المروة كان الصنم (نائلة)، وإن يوسف فى الأسطورة قد جامع نائلة داخل الكعبة، لذا نشأ طقس الهرولة بينهما فى الجاهلية، مداً وإيصالاً لحبل الوصال بينهما، وهذا الجماع كان بدوره أحد طقوس عبادة الخصب فى الديانات القديمة. (ولنلاحظ أن نائلة فى العامية نايلة، وفى العربية يعبرون عن وصال المرأة بكلمة نالها، وفى العامية المصرية: نَيّلها)

وتأسيساً على كل هذه المعانى سنقوم بالربط بين (إيل يراه) أو (إل يرخ) وبين القمر، باعتبار القمر كان يرتبط دوماً بالعبادة الخصبية التى كانت تقوم فى البوادى، والاسم (يرخ) كان أحد أسماء القمر فى العبادات السامية وله أسماء عدة مشتقة من (يراه)، فهو أيضاً (رخ)، (يرخ)، و(الورخ) و(يرح)، وكان أشهر مقار عبادته فيما يفيدنا به أنيس فريحة، المدينة التى حملت اسم (أريحا)[1] فى فلسطين.

---

[1] فريحة: دراسات .. سبق ذكره، ص٩١.

وإننا إذ نربط بين القمر وبين عبادة الخصب، فإننا نقيم ذلك على عدة شواهد، أهمها الاعتقاد القديم أن القمر متولد أصلا من الهواء، والهواء هو الذى يسبب الريح (يريح)، كما أنه فى هيئة الهلال كان فى شكل قرنين، والقرنان لوازم الحيوانات التى قدست باعتبارها رموز آلهة الخصب وهى الشياه عموما، (الثور، التيس، الخروف)،لذلك أطلق على القمر لدى الشعوب السامية اسم آخر هو (سين) اشتقاقا من أسماء الشياه، وأسماء الشياه، فيما يفيدنا به (موسكاتى) كانت تنطق (سى) بإمالة السين إمالة طويلة، وهى التى تطورت بعد ذلك من (سى) إلى (شى) إلى (شاء) إلى (شاه)[1].

إذن (إل يرى) هو إله الخصب إله القمر،وتأسيسا على فرضنا هذا وقياسا على ثوابت العبادات الخصبية فى المنطقة، يمكننا افتراض أنه كان فى الثالوث الإيلى، ابن (إل شداى) وشداى منها الشذى، أى الرائحة والريح والهواء، والقمر متولد عن الهواء فى اعتقادات القدماء كما أسلفنا فيكون (إل شداى) هو إله الهواء أبو إله الخصب القمرى (إل يرى).

وهكذا لا يكون اليهود قد خرجوا فى عهدهم الأول عن النمط السائد فى العبادات الطبيعية القديمة، المرتبطة بمواطن الزرع، وبظواهر الطبيعة الكبرى، والذين عبدوا الآلهة نفسها بالمواصفات والوظائف نفسها تقريبا، بينما ظل (إل) كعلم مستقل ومجرد عند الجميع، دلالة جلالية تعود أصلا إلى السماء كجليل حمل لدى

---

[1] موسكاتى: سبق ذكره، ص٣١٩.

السومريين الاسم (آن) مجردا،ولدى الساميين الاسم (إل) مجردا،ليظل دائما فوق جميع الآلهة، وأبوها جميعا.

هذا عن (إلوهيم) أو مجموعة الآلهة الإيلية فى العهد الإبراهيمى وما قبله، فماذا عن (يهوه) المنسوب فى التوراة إلى النبى (موسى)؟

واضح أن إله السماء توارى بمرور الزمان وأصبح رمزا غير واضح، بينما قفز الإله الابن ليحتل مكان الصدارة فى ديانات المنطقة، فأدونيس الفينيقى يبرز ويصبح فوق جميع الآلهة، وبعل الكنعانى يزيح الأب إيل تماما ويصبح هو محور العبادات،ومن قبل تقدم إنليل السومرى على أبيه آن،بل وظهر المسيح الابن فى الديانة المسيحية بنص الأناجيل كما الوحيد من الأب ليصبح هو المعبود الرئيسى الأول، بينما توارى الأب تماما،ثم فى المذاهب الشيعية فى الإسلام، المنعوتة بالمتطرفة، تم إحلال الحسين فى المقام الأول بعد أن أزاح من الوجدان أباه (على) أو الإله العلى، وبنفس الطريقة أزاح الإله الابن (يراه) الأب وحل محله ليصبح هو إله الهواء وإله الرى وإله القمر والإله الثور معا، ولكن باسم (يهوه).

وإن استيلاء الابن على سلطات أبيه فى المجامع الإلهية، هو بالاستفادة من النظرية الفرويدية، ترديد لما حدث فى المجتمع الإنسانى على الأرض، حيث كان يحل الابن القوى دائما محل أبيه الذى ظل مطلق السلطات طوال فترة تمتعه بالقوة الجسدية، حتى إذا

ما كهل وظهرت عليه بوادر الضعف،قفز أقوى الأبناء إلى المقدمة واستولى على القيادة.

وقد جاءنا من نصوص آثاريات (أوغاريت) الكنعانية الفينيقية نصوص تشير إلى أن الإله (إيل) أب طاعن فى السن عاجز عن إدارة شئون مملكته، تواق إلى أن يحمل ابنه أعباء وظيفته الإلهية عنه، وأعلن فى عدة نصوص تعيين ابنه خليفة له[1]؟

ولما كنا برأينا متفردين فى القول بتفوق (إل يراه) بالتحديد،وأنه هو الذى أصبح يحمل اسم (يهوه)بعد مجموعة الآلهة الإيلية (إلوهيم)، فنحن نحتاج مزيداً من الأدلة حتى يتسم رأينا بالوجاهة المطلوبة.

لقد عرضنا فرضنا:أن (إل يراه) هو إله القمر المتولد عن (إله الشذى) أو الهواء أو الريح (إل شداى)، وأنه مرتبط بالرى والخصب، وأن أهم رموزه هى ذات رموز آلهة الرى فى مختلف العبادات الخصيبة، وهى الشياه (الثور، التيس، الخروف)،وأنه ربما صاحبته طقوس الخصب المعروفة فى عبادات الخصب كالتضحية بالأطفال على مذبحه، وممارسة نوع من طقوس الجنس لحض الطبيعة على الإخصاب والعطاء نباتاً وحيواناً.

---

[1] د. فريحة: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٩٧ :٢٠٩.

وبالبحث عن دعم، نجد التوراة تحكى لنا: أنه من بين أسباط يعقوب (إسرائيل) من دخل مصر مع يوسف، حين كان مُوَزّراً على خزانة مصر، وهناك تكاثروا وتناسلوا، ومن سبط ليفى أو لاوى كان النبى موسى، وإن موسى هرب من مصر إثر جريمة قتل فيها مصرياً، انتصاراً ليهودى من بنى جلدته، بعد أن تحولوا من سادة إلى عبيد، وأن هروبه كان إلى قبائل (مديان)، وهناك تعرف إلى كاهن مدين المدعو (يثران) وتزوج ابنته، وعاش معه زماناً يرعى الغنم فى تلك البوادى، وهناك:

> جاء إلى جبل الله حوريب،وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة، وقال: موسى، موسى، فقال: هأنذا، فقال: لا تقترب إلى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.. هكذا تقول لبنى إسرائيل: أهيه أرسلنى إليكم، وقال الله أيضا لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه.. أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد.
>
> (خروج٣-١:١٥)

إذن، ميلاد (يهوه) فى أفق الديانة اليهودية، بدأ من تمثلـــه فـــى نار تلتهب فى عليقة، حيث التقى بموسى وأعلنـــه بقـــرار ربوبيتـــه لليهود، ودعما لفرضنا المطروح، ما نجده عنـــد الآثـــارى (ديتلـــف نيلسن)، الذى قطع بأن (يهوه) كان إلها للقمر، تأسيســـا علـــى مـــا لاحظه من شواهد أهمها:

- أن التوراة عندما كانت تتحدث عن تجليات(يـــهوه) تفـــهمنا باستمرار أن هذا التجلى لم يكن يحدث إلا ليلا.

- أن يوم السبت المقدس، والأعياد الأسبوعية الأخـــرى فـــى الطقوس اليهودية ترتبط بأيام المحاق الثلاثـــة، وترتبـــط كـــل شهرين بمواقع القمر.

- أن تعبيرات التوراة عـــن ظـــهور الإلـــه (يـــهوه) هـــى اصطلاحات فلكية قمرية معروفة.

- أن ظهور (يهوه) فى سيناء لليهود، ارتبط بوقـــت ظـــهور القمر فى اليوم الثالث من الشهر القمرى.

- أن أهم مواقيت تقديس (يهوه)، تكون فى اليوم الأول مـــن الشهر القمرى ومنتصف الشهر عندما يكون القمر بدرا.

- أن مواعيد الأضاحى المقربة إلى (يهوه)حســـب الأوامـــر المدونة بالتوراة كانت ترتبط بمواطن القمر، ويتزايد عددهـــا

مع نضوج القمر، حتى استوائه بدراً في الرابع عشر من الشهر، فيذبحون أربعة عشر أضحية[1].

ونضيف إلى نيلسن ملاحظاتنا:

إنه وإذا كانت ديانات الخصب قد اعتبرت الشياه وعلى رأسها الثور، رمزاً لإله القمر، للتشابه بين الهلال والقرنين، فهو ما لم تخرج عنه التوراة، ومن أمثلة ذلك:

- أن أتباع موسى إبان رحلة الخروج، انتهزوا فرصة غيابه فوق الجبل لكى يحضر فصنعوا ثوراً من ذهب، ووقفوا يرقصون حوله عراة، وهو ذات الطقس التعبدى فى مختلف ديانات الخصب (خروج٣٥).

- تزعم التوراة أن موسى أمر بصنع تابوت بمواصفات محددة، ليتخذه (يهوه) مرقداً له، وإن هذا التابوت هو الذى وضعه الملك (سليمان) بعد ذلك فى هيكل عظيم، صنع للتابوت خصيصاً فى أورشليم، وأنه كان لهذا الهيكل مذبح، وعلى المذبح تمثال لرأس ثور كبير، له قرنان عظيمان[2].

---

[1] نيلسن: الديانة.. سبق ذكره، ص٢٢٣.
[2] د. شلبى : سبق ذكره، ص ١٨٤.

ويذكر سفر الملوك الأول: أن الملك سليمان قتل أخاه أدونيا، وذبح قائد جيشه يوآب، وهو ممسك بقرون المذبح يستجير بيهوه[1] أما جميع زخارف المعبد فكانت ثيراناً مقدسة[2]، ويؤكد (ديورانت): «أن بنى إسرائيل لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والتيس»[3].

♦ أن الملك اليهودى (يربعام) بنص التوراة «عمل عجلى ذهب وقال لهم: عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً فى بيت إيل، وجعل الآخر فى دان» (ملوك أول١٢-٢٨،٢٩).

♦ أو ما جاء فى النص التوراتى عن هارون أخى موسى «فأخذ ذلك (الذهب) من أيديهم، وصوَّره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل» (خروج٣٢-٤).

♦ ولنذكر قارئنا بأمور عدة لم يقف عندها الباحثون، وأهمها هو: لماذا تحول الجبل المقدس، الذى التقى فيه موسى برب لهيب العليقة، من جبل (حوريب) إلى جبل (الطور)؟ ولماذا

---

[1] نفسه: ص ١٦٩.
[2] يعقوب السيد بكر: تعليقاته وهوامشه علي ترجمه لكتاب موسكاتي السابق ذكره، ص٣٤٩.
[3] ديورانت : سبق ذكره، ص٢٣٨.

كان اسم كاهن بلاد مديان حيث التقى موسى بربه، وحيث تزوج بنت هذا الكاهن، لماذا كان يحمل اسم (يثران)؟ ويثران مع ظاهرة القلب فى الساميات تصبح (ثيران)!!

ونحن نعلم أن كهنة الآلهة، كانوا يتزيون عادة بزى الإله، وأكدت ذلك نقوش آلهة الخصب وكهنتها بطول المنطقة وعرضها، وصورت كهنة الثور يلبسون تاجاً ذا قرنين.

ومما يدعم وجهة نظرنا فى أن اللفظة (ثيران) أو كما وردت مقلوبة ــ بالميتاتيز ــ (يثران) هى لقب كهنوتى لكبير كهنة الإله الثور، هو أن أول ذكر لهذا الكاهن فى قصة لقاء بناته بالنبى موسى، عندما كان موسى هارباً من مصر إلى مديان، تقول: «وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وأنجدهن، وسقى غنمهن،فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن.. قلن: رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة » (خروج٢-١٦:١٩).

وقد تكرر ذكر هذا الكاهن بالاسم (رعوئيل) عدة مرات كما فى النص «وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى حمى موسى: إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه» (عدد١٠-٢٩)، مما يفيد أن هذا المكان كان يحمل اسم رعوائيل ويقلب لقباً وظيفياً (الثور).

◆ وأنه ما علينا إلا أن ننطـــق اســـم (يـــهوه) نطقـــا دقيقـــا (جاهوفاهJAHUVAH)حتى نجدنا نقلد خوار الثور بكل دقـــة؟! خاصة مع تدقيق (لودز LODS) فى النطق الصحيح لاسم هـذا الإله، ووجوب نطقه بفتح ثم ضم فسجول طويلة[1] (والغريـــب مع ذلك، أن لودز لم يلحظ العلاقة بين النطق بهذاالشكل وبيـــن خوار الثور).

ثم، وحتى ندعم فرضنا أكثر، سنضطر إلى تسجيل أمـــر هـــام لاحظناه، وهو التلبس الواضح للإله (يهوه) بالإله الكنعـــانى (بعـــل مولوخ) منذ مراحله المبكرة (والبعل مولوخ) ينطق أيضـــا ويكتـــب (بعل مولوك والبعل الملك).ويعنى السيد الملك، أو الـــرب الملـــك، وكان ذا غرام خاص بدماء الصغار وكانت له احتفالات يأخذ النـــاس زينتهم فيها، كأنهم فى يوم عيد، وكانت دقـــات الطبـــول وأصـــوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم،وهم يحترقون فى حجر الإلـــه، وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها ســـنة ٣٠٧ق.م، أن أحـــرق على مذبح هذا الإله الدموى مائتا غلام من أرقى أسرها، كما كشـفت حفائر (كفر الجرة) عن صندوق يضم عظام أطفال، تحـــت أســـاس عمود كضحية تأسيس، لبعل مولك، أو الملك.

---

[1] Lods (A): Israel from its beginnings to the middle of the Eighth century, London, 1913, PP 321-322.

ومن القصص المشهورة قصة (ميشا) ملك (موآب) الذى ضحى بابنه البكر ليفك الحصار عن مدينته، ولما أجابه البعل، ذبح سبعة آلاف يهودى شكراً وعرفاناً.

وملاحظتنا عن تلبس (يهوه) بالإله (بعل مولك)، تبدأ من شغف (يهوه) بدوره بدماء البشر،فهذا الملك (يفتاح) ينذر للرب نذراً قائلاً: «إن دفعت بنى عمُّون ليدى، فالخارج الذى يخرج، للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة.. ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته، وإذا بابنته خارجة للقائه.. وهى وحيدة ولم يكن له ابن ولا ابنه غيرها.. ففعل بها نذره الذى نذر» (قضاة١١-٣٠:٣٩) ثم انظر مثلا آخر: «وسلمهم إلى يد الجعبونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب» (صموئيل الثانى٢١-٩)،أو «فحمى غضب الرب على إسرائيل، فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب،وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب» (عدد٢٥-٣،٤)، أما النبى (إرميا) فيعلنها صريحة ويقرر أن اليهود كانوا يقدمون أطفالهم مذبوحين محروقين على مذبح البعل الملك (إرميا-٩).

ومع مزيد من المطالعة فى التوراة يتأكد فرضنا،حتى نكاد نزعم أن (يهوه) لم يكن شيئا آخر غير (البعل الملك)،ولنعد إلى لقاء موسى بيهوه النارى، والنص يقول: «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط العليقة» ومع التعبير (ملاك الرب) يستمر النص فيقول: «ناداه الرب من وسط العليقة.. هكذا تقول لبنى

إسرائيل:(يهوه)أرسلني ..إليكم» فما المعنى إذن؟ هل كانت نار العليقة ملاك الرب، أم الرب (يهوه) ذاته؟ الواضح في النص أنها الرب بذاته، إذن ما هو تفسير (ملاك الرب)؟ لقد حاولت في بحث سابق (القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث) تفسير هذا التضارب المتواتر بكثرة في التوراة ما بين ملاك الرب، و(الرب)، بأن كاتب هذه الأجزاء من التوراة من الكتاب المتأخرين (حوالي ٤٠٠ق.م في الأسر البابلي وبعده)، وأن فكرة الألوهية كانت قد سارت حثيثاً في تطورها نحو التوحيد، مما حدا بالكاتب إلى محاولة تفادي التعدد عند الحديث مثلاً عن الذين دمروا سدوم وعمورة(وهم ثلاثة) فكان يضطر إلى إثبات المعلومة الأصلية المعددة،ثم يتحايل بالقول أنهم ملائكة، لكني ـ لوجه الحق ـ لم أعد مقتنعا تماماً بصدق هذا التفسير، لذلك لن أثبته الآن أو أنفيه، إنما أضيف إليه تصوراً جديداً أو فرضاً جديداً أكثر تماسكاً وقبولاً، أبدأه بافتراض وجود خطأ واضح ربما كان في ترجمة النصوص الأصلية فلا شك أن (ملاك الرب) إنما هي أصلا (الرب الملك) أو (البعل مولك، مولوخ)، ويدعم ذلك أن تعبير (ملاك الرب) يرد تبادلياً في مواضيع كثيرة بالتوراة مع تعبير (الإله أو يهوه)، ومن هنا لا شك يراودنا إذا قلنا أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل مولك) أو (الملك)، منادى بالاسم اليهودي الجديد (يهوه).

ولنلحظ أن (شتادة) يرى معنى الاسم (يهوه) هوى بمعنى سقط[1] (يهوه).ولنلحظ أن هوى في اللغة تعني سقط وارتفع في آن معاً،

---

[1] Stade (B): Lehrch der hebraischen (J):Die Biblischen Atertu mer. الهامش الأول.

الهواء، وهو ما ذهب إليه (فلهاوزن) حين اعتبر (يهوه) إله الريح[1]، وقد خرج المرحوم العقاد باعتقاده أن الاسم (يهوه) من مادة الحياة (يحو)[2]، وهو ما يذكرنا بالتعبير التوراتى المتواتر عن (إل رئى) بأنه مرة (يهوه رئى)، ومرة (لحى رئى)، ولنلحظ أن الهواء سبب (الحياة)، والأقدمون اعتبروا (الروح) سر الحياة من (الريح) أو الهواء والنفس، وحملت لنا اللغة اشتقاقاتها من جذر واحد، وعليه فإن فرضنا أن (يهوه) كان إلهاً للهواء والريح مرموزاً له بالشياه، مع استفادتنا بمذهب (ديتلف نيلسن) أنه كان إلهاً للقمر، قد أصبح فرضنا مدعماً بشكل كافٍ، وقد ألمح الباحثون إلى ارتباط (يهوه) بالبراكين، وعدوه إلهاً بركانياً ولنا هنا إضافات تثرى هذا المعنى فإذا ربطنا بين ظهور القمر بجاذبيته التى تسبب ظاهرة المد، كما تسبب أيضاً فوران البراكين النشطة، فإن ذلك يؤدى إلى ارتباط القمر بالبراكين فى أذهان الأقدمين، ولو طبقنا ذلك على (يهوه) كقمر سنجده مرتبطاً بالبراكين ارتباطاً مثيراً،حيث نجد صفات (يهوه) فى التوراة صفات بركانية دون لبس، فهو قد ظهر ــ أولاً لموسى فى هيئة نار فى عليقة،كما كان يتمثل لموسى وأتباعه إبان رحلة الخروج «نهاراً فى عمود سحاب.. وليلاً فى عمود نار»(خروج١٣-٢١)، وهو المشهد الذى تتجلى به البراكين، فهى إبان النهار يطغى ضوء الشمس على إشعاع لهيبها المختفى فى الفوهة، فلا يرى منها غير دخانها، أما ليلاً فيتضح مشهد النيران واللهيب.

---

[1] walihausen (J) : Die Bibli schen Atertumer
انظر أيضاً هوامش يعقوب سيد بكر علي كتاب موسكاتي السابق ذكره ص٢٨٦.

[2] عباس العقاد: الله ، كتاب الهلال، سبتمبر ١٩٤٢، ص ١١٣.

كما خلعت التوراة على (يهوه) صفات، ليست سوى صفات مسئول كبير عن البراكين وهولها في تصور العقل القديم فهي تصفه بأنه «إله يسخط كل يوم» (مزامير٧-١١)،وأنه «يمطر.. فخاخاً ناراً وكبريتا وريح السموم» (مزامير١١-٦)، وأنه ينادي عباده آمراً اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده ».(مزامير٢-١١) وأنه إذا غضب «صعد دخان من أنفه ونار من فمه» (مزامير١٨-٨)، وأنه إذا تجلى صاحبته «رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً» (خروج١٩-١٨:١٦)، أما صفته الدائمة المتواترة في نصوص التوراة فهي «الرب إلهك هو نار آكلة» (تثنية٤-٢٤) أما أوضح تعبير توراتي عن ارتباط ظهور القمر بجاذبيته، بظهور الإله (يهوه) بثورة البراكان، فهو ذلك النص الذى لا يحتاج تعليقا: «.. جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير،وتلألأ من جبل فاران،وعن يمينه نار شريعة لهم» (تثنية٢٣-١) مع ملاحظة أن اسم الجبل الذى أشرق منه الإله (يهوه) أو القمر، يحمل اسم (سعير)، والسعير يدل على هوية هذا الجبل المستعر بالنار الذى تلألأ منه الإله وعن يمينه نار.

أما الأكيد فهو أن ابن (إيل) كان(البعل الملك)، وفي النصوص الأوغاريتية الكنعانية يقول الرب (إيل): «اسم ابني ياو»[1]، و(ياو) ليس شيئاً آخر غير (ياهو) أو (إهيه) أو (ياه) أو (يهوه)، أسماء رب

[1] السواح: سبق ذكره، ص ١٠٨.

اليهود فى العهد الموسوى، كما وردت فى التوراة!! (ولنلاحظ أنه عندما جاء الإسلام أعطى ملاك أو خازن النار فى السعير الاسم **مالك**)؟!

وعليه نقرر أن اليهود عبدوا فعلا (الملك) باسم (يهوه) فى الغالب وعبدوه أحياناً أخرى بالاسم (الملك)صراحة كما رأينا فى سفر النبى أرميا. وأنهم تحاشياً لهذه الوصمة الكبرى التى تهدم أعمدة الفكر الدينى اليهودى المتسم بالذاتية والاستقلالية والخصوصية التامة، حيث زعموا أن (يهوه) اختارهم من بين العالمين عُباداً له، بينما هو أحد آلهة شعوب المنطقة، وأنه كان معبود اليهود فعلاً وإلا ما حرمته ونهت عنه التشريعات الموسوية، أقول: تحاشياً لذلك استخدم اليهود الاسم (يهوه) بديلاً عن (الملك)، ذلك الاسم الذى حمل من المعانى الكثير أوردناها سلفاً، لكنه حمل أيضاً معنى نداء الغائب فى العبرية تحاشياً لنداء الرب صراحة باسمه (بعل مولوك) أو (الملك)، ولم تكن التسمية (يهوه) كنداء للغائب (هو)كما ذهب الباحثون التوراتيون احتراماً للذات الإلهية (كما فى رأى سميث مثلاً)[1] إنما تغطية لاسم المعبود الأصلى، الذى كثيراً ما ظهر فى الترجمات بالاسم (**ملاك الرب**) بدلاً من الترجمة الحقيقية (**الرب الملك**) أو (**البعل مولوك**) أو مالك .

---

[1] أحمد شلبي: سبق ذكره، ص ١٧٦ مأخوذ عن:
Smith , God and Manin erly Israel, p35.

لكن ذلك لا يعنى أن اليهود، قد انتقلوا من عبادة مجموعة الآلهة الإيلية (إلوهيم)، إلى عبادة إله واحد باسم يهوه، فالأمر لم يكن كذلك، ولم يكن (يهوه) هو إله اليهود الوحيد بعد العهد الموسوى، إنما كان هناك عدد آخر من العبادات لحق بعبادة(يهوه) وعددا من الآلهة عٌبد فى الوقت ذاته إلى جوار (يهوه) حتى فى داخل هيكله، وقد سجلت التوراة ذلك دونما حرج،وتواجدت هذه الآلهة طوال العصر الممتد من موسى حتى ظهور الأنبياء الموحدين (أمثال أشعيا ودانيال، وظهروا متأخرين، قبل القرن السابق للميلاد بقليل).

فإلى جوار (البعل الملك) أو (يهوه) عبد اليهود عددا آخر من البعول مثل (بعل فغور)، الذى ورد فى النص التوراتى «وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمى غضب الرب على إسرائيل» (عدد٢٥-٥:١) ومثل البعلة، زوجة بعل مولك (البعلة الملكة، أو ملكة السماوات، بعليت مولوخ) المعروفة بالأنثى الإلهية (إناث). إذ قالت التوراة بلسان اليهود «بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فنبخر **لملكة السماوات**، ونسكب لها سكائب، كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا رؤساؤنا فى أرض يهوذا، وفى شوارع أورشليم، فشبعنا خبزا،وكنا بخير..» (أرميا٤٤-١٧).

بل إن بعض كبار ملوكهم مثل سليمان، عبد مثل هذه الآلهة صراحة وهو مانراه فى النص التوراتى «حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين، على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك

رجس بنى عمون» (ملوك أول١١-٧) وبالمناسبة: هل كموش غير جموش أو بالعربية جموس أو جاموس؟ لفتة نشير بها إلى إنه بدوره كان إلهاً للخصب.

ثم إنهم عبدوا أيضا (تموز) إله الخصب الرافدى، ومارسوا طقوس الندب والبكاء عليه باعتباره إلهاً شهيداً، كما ظلوا على عبادة الشمس فترة طويلة وهو ما يفهم من رواية النبى حزقيال، عندما ذهب إلى الهيكل:«وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز.. وإذا عند باب هيكل الرب وبين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس» (حزقيال٨-١٤:١٦).

ولا تنى التوراة تؤكد أنهم عبدوا مجموعة البعول والبعلات الملقبات باسم (عشتارت) من عشتروت الرافدية، فتقول: «وعبدوا البعليم (جمع بعل) والعشتاروت (جمع عشتار) وآلهة آرام وآلهة صيدون، وآلهة موآب، وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين» (قضاة١٠-٦) أو باختصار، أنهم شاركوا فى عبادة كل آلهة المنطقة.

ومن المقدسات الشبيهة بالآلهة عند اليهود، وربما كانت أدنى قليلاً، كائنات أسمتها التوراة (الكروبيم) جمع (كروب)، وكان تصورهم لشكل (الكروب) محيراً، فهو يظهر مرة على أنه طير

ربما كان نسراً، لكنه بعد ذلك يأخذ شكل الثور المجنح، بوجه إنسان، فالأسفار القديمة تصوره فى هيئة نسر صنع لـــه تمثـالان وضـــع أحدهما على مقدمة تابوت العهد أو الشهادة والآخر فـــى مؤخرتـــه، فالنص يقول: «فلما دخل موســـى إلـــى خيمـــة الاجتمـــاع، ليتكلـــم معه(الرب)، كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الـــذى علـــى تابوت الشهادة، من بين الكروبيين» (عـــدد٧-٨٩). وينســـب إلـــى موسى القول أنه رأى هذا النوع من الطيور قرب عرش الإله، وأنـــه لما أتم سليمان بناء الهيكل، جمع شـــيوخ اليـــهود «وحمـــل الكهنـــة التابوت..وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فـــى محـــراب البيت، فى قدس الأقداس، إلى تحت جنـــاحى الكروبيـــن» (ملـــوك أول٨: ١)

ويبدو لنا أن تقديس النسور فى مختلف العبادات القديمة، كـــان سببه رؤية العقل القديم لمسكن الآلهة فى السماء، مـــع قـــدرة هـــذه الطيور رغم ضخامتها على الطيران والصعود فى الأعـــالى، ممـــا جعلها فى التصور قريبة من الآلهة، لذلك أعطى العقل القديـــم كـــل المقدسات القريبة من الآلهة الأجنحة والقدرة على الطـــيران حتـــى تتمكن من الصعود إلى مقر الآلهة أو الهبوط منها، وهو ما نلحظـــه فى صفات الملائكة، وقد قدست معظـــم الشـــعوب القديمـــة النســـر وبخاصة العرب الجنوبية وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة (نســـر) ضمن مجموعة آلهة عربية قديمة فـــى قولـــه: (ولا تـــذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) (٢٣- نوح).

أما الصورة الثانية للكروب، كثور مجنح برأس إنسان، فتــأتى فى الأسفار المتأخرة، حيث نجد النبى حزقيال يصفه كالآتى: «لــها شبه إنسان، ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة ..أيدى إنسان تحت أجنحتها.. أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجــه أسـد.. ووجه ثور.. ووجه نسر» (حزقيال ١-٢٥)، وقد نقشت تماثيل هـذه الكائنات الإلهية على جدران المعبد اليهودى ومـــع التحــول نحـو التوحيد (عند إشعيا وأرميا) تحولت الكروبيـــم إلــى الدابــة التــى يستخدمها الإله فى الركوب، فكان لابد لدابته أن تتميز عـــن حمــير وخيــول البشــر، بمــا يليــق بمكانتــه، فــأضيف إليــها وجـــه الإنسان،والأجنحة. «ركب على كروب وطار وهف علـــى أجنحـة الرياح» (مزامير١٨-١٠)

وغنى عن الذكر أن مثل هذه الكائنات بقى محفوراً فى الديانتين المسيحية والإسلامية،ففى المسيحية تصادفنا (الكروبيم) فى حفـــل أو (بارتى) إلهى تغنى قداساً إلهياً (رؤيا يوحنا اللاهوتى٤-٦:١١)،أمـــا فى الإسلام فقد جاءتنا الدابة الإلهية (كروب) منطوقة (قروب)،ومــع ظاهرة القلب المعروفة فى اللغات الســامية تحولــت (كــروب)، أو (كراب) إلى (براك)، أو (براق).وهو دابة ســماوية بوجــه إنســان وجسم مجنح، حملت النبى محمداً ﷺ من مكة إلى القدس فى قصـــة الإسراء المعروفة، كما كان للبراق باسمه العبرى (كروب) شأن فــى كتابات التراث الإسلامية،لكن بعد أن تحولت مع التطور إلى أمـــلاك

للإله الواحد، فهي ملائكة له، فأصبحوا سادة الملائكة[1] وباعتبارهم دواب ركوب وحمل،فقد جاءوا كحملة للعرش الإلهي في الإسلام[2] كما كانوا مركباً ليهوه وتابوته من قبل، وقد صادق النبي محمد ﷺ على بيت من الشعر الجاهلي لأمية بن عبد الله يصف الكروب يقول فيه:

رجل وثور تحت يمنى رجله   والنسر لليسرى وليث ملبد

وجاء تصديق النبي في تعقيبه على هذا البيت بقوله:

صدق أمية في قوله[3] !؟

ولعل صورة الكروب تلك، لا فرض آخر لظهورها، وتحولها من نسر إلى ثور مجنح،سوى القول أن حزقيال قد تأثر بشدة بالثيران المجنحة المرسومة على جدران بابل، وتماثيلها المتناثرة في أرض بابل، وكانت عند البابليين حيوانات خرافية مهمتها حراسة

---

[1] الزمخشري: الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلى الباجوى، ج ٢، القاهرة ١٩٤٧، ص ٤٠٨.

[2] القزويني: عجائب المخلوقات، جوتنجن، ١٨٤٩، ص ٥٦.

[3] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، بولاق، ١٢٨٥هـ ، ص ١٦٠.

المواقع الهامة فى البلاد، ولا شك أن حزقيال رآها هناك إبان أسر اليهود فى بابل.

ونظن أن اليهود قد تمثلوا فى هذا الكروب البابلى إلههم (يهوه) فى فترة من زمانهم: فالوجه الإنسانى الوقور يمثل الجانب البشرى فيه، والثور يمثل إل رئى، بوصف الثور رمزا للخصب والرى، والأجنحة تمثل إل شداى أو الريح، والقرنان رمز للقمر.. الخ.

ثم إضافة للكروبيم كانت هناك كيانات أخرى مقدسة مثل السرافيم جمع ساراف، ويفسر (موسكاتى) ساراف أنها كانت تعنى الحية أو الثعبان[1].وقد سبق وأقام لها موسى تماثيل مقدسة على راياته عند خروجه من مصر «فصنع موسى حية نحاس ووضعها على الراية» (عدد ٢١– ٩)، ولا ننسى عصى موسى التى كانت تنقلب إلى حية، كما لا ننسى خروج موسى ورجاله من مصر القديمة حيث كانت الحية رمزاً مقدساً يوضع على تيجان الفراعنة،وأن السرافيم لم تعرف فى تاريخ الديانة اليهودية قبل الخروج من مصر، ويبدو أن عبادة الحية وما يلزمه طقسها من إيقاد نار مستمرة أمامها للتبخير وتقديم قرابين البخور، قد استمر قائماً فى أفق الديانة اليهودية دون أن يغضب (يهوه) أو ينزعج وهو ما تؤكده التوراة فى قولها:«حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل

[1] موسكاتى: سبق ذكره، ص ٣٠٥.

كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها"(ملوك ثانى١٨-٤)، هذا بينما كان(يهوه) يتفجر غضباً إذا عبدوا بعلاً آخر لأنها بعول غريبة، مثل بعل بنى موآب كموس أو جاموس أما هو فالبعل الوحيد لليهود، لذلك كان يطالبهم بالإخلاص القبلى له دون بقية البعول، وفعلاً نظر اليهود إلى بعلهم بحسبانه بعلاً إسرائيلياً فحسب، أحق بعبادة اليهود من البعول الأخرى،ولم ينكروا فى الوقت ذاته وجود بعول أخرى، كما لم ينكر (يهوه) ذلك، لكن إنكار الأتقياء منهم كان إنكاراً لسيادة رب غريب عليهم، ومن هنا دانوا ليهوه وحده بالولاء، فالتوراة لا تميز ربها باعتباره رب الجميع الأوحد، إنما رب إلى جوار أرباب الشعوب الأخرى، لكنه الوحيد من بينها الجدير بولاء اليهود، انظر مثلاً:

من مثلك بين الآلهة يا رب (خروج١٥-١١)

الآن علمت أن الرب **أعظم من جميع الآلهة** (خروج١٨-١١)

من يشبه الرب بين أبناء الله؟ إله موهوب جداً فى مؤامرة القديسين، ومخوف عند جميع الذين حوله، يا رب إله الجنود، **من مثلك قوى** رب؟ (مزامير ٨٩-٦:٨)

لكن التطور التالى الذى لحق بعبادة البعل الملك يهوه، ليتحــول به من إله قبلى إلى عالمى، يطلب السيادة على القبــائل والشــعوب الأخرى، فقد جاء مترافقاً مع ظروف عالمية وتغيرات جــدت بعــد السبى فى الرافدين، وقام بهذه المهمة بكفاءة عالية عدد من الأنبيــاء، أشهرهم (دانيال وأشعيا)، اللذين كانا على علاقــة ســرية وخاصــة بالدولة الفارسية الطالعة الطموحة، وبعلها (كورش)،حتى اتهم أشــعيا بسبب هذه العلاقة بالجاسوسية لحساب الفرس،رغم وضوح أنه كــان يعمل بإخلاص لفك أسر اليهود على يد قورش، ولــو مــع بعــض التنازلات الدينية التى لا بأس بها إزاء الغرض الأكبر، وكانت هــذه التنازلات هى سبب هجوم اليهود عليه واتهامه بالعمالة، وقد استطاع أشعيا وصحبه أن يفتحوا أبواب بابل للفرس، وبعد سقوط هذه القــوة الكبرى تمكن قورش من الزحف قدماً ليكــوّن أكــبر إمبراطوريــة ظهرت فى الشرق حتى عهده، وباعتبار اليهود قطعة من هذا الملــك الواسع، فقد تصرف الأنبياء وفق الوضع الجديد، واستغلوه سياســياً ودينياً بذكاء، فحولوا إلههم المحلى إلى إله عالمى، ولم يترددوا عــن التجاسر بالقول إنه هو إله قورش ومن ثم إله الإمبراطوريــة، بــل وسجلوا ذلك فى توراتهم، وادعوا أن قورش كــان يعمــل بنصــح (يهوه) وإرشاده حتى بلغ بهم الأمر مبلغاً كبيراً فقالوا إن قورش هــو مسيح(يهوه)المنتظر، ومخلص اليهود الذى طالما ترقبــوا ظــهوره ليعيدهم إلى أرضهم ليبنوا دولتهم من جديد، هذا رغم أن قورش كان رجلاً مؤمناً بديانته الزرادشتية، مخلصاً لها تماماً، لكنه لم يجد بأســاً

ولا حرجاً فى قليل من المجاملة لجواسيسه الخُلّص فتغاضى عما كان يعلنه اليهود عنه وعن الرب يهوه، مادام الأمر لم يتجاوز النطاق الدينى أو نطاقهم هم الدينى بتعبير أدق.وزاد قورش فى المجاملة فأطلق سراحهم من الأسر،وساعدهم فى إقامة هيكلهم مرة أخرى، ثم تزوج واحدة منهم (إستير) وجعلها ملكة على بابل.

وكان لتبادل هذه المجاملات والسماحات بين العاهل الفارسى العظيم وبين اليهود، دوره الفاعل فى تحول(يهوه)من إله قبلى محلى إلى إله عالمى..

وسبق ذلك عدة محاولات سريعة لتخليص (يهوه) من ارتباطه بمولك الثور ومن السرافيم (الحيات) والكروبيم (الثيران الطائرة)، فقام عدد من الأنبياء بهذه المهمة بجرأة شديدة ليعلنوا كفرهم بالإله الثور،والتنديد به والتطاول عليه، فهذا يجهر قائلا: «قد زَنِخَ عجلك يا سامرة» (هوشع٨-٥)وذاك الملك حزقيا بن أحاز يتبع الدعوة الجديدة، فتسجل التوراة عنه، أنه «هو أزال المرتفعات، وكسر التماثيل،وقطع السوارى، وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها»(ملوك ثانى١٨-٤).

ولذلك «أمرالملك حلقيا الكاهن العظيم، وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة

للبعل (إقرار واضح بصدق فرضنا)، وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم، فى حقول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل.. وذبح جميع كهنة المرتفعات.. وكذلك السحرة والعرافون والترافيم والأصنام، وجميع الرجاسات» (ملوك ثانى٢٣-٤:٢٤).

ومن ثم جاز ليهوه بعد ذلك أن يزهو بذاته الوحيدة،فيقول على لسان أشعيا:

أنا الرب وليس آخر،لا إله سواى.. أنا الرب وليس آخر، مصور النور وخالق الظلمة، صانع السلام (أشعيا٤٥-٥:٧)

أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيرى وكل شيء أنا أعلم به..أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السموات وحدى، باسط الأرض، من معى؟ (أشعيا٤٤-٦:٢٤)

الجالس على كرة الأرض.. الذى ينشر السموات كسرادق،ويبسطها كخيمة للسكن، الذى يجعل العظماء لا شيئاً (أهل بابل)، ويصير قضاة الأرض كالباطل.. فبمن تشبهوننى فأساويه؟ (أشعيا٤٠-٢٢:٢٥)

وهكذا تكفل أشعيا بإشاعة أن يهوه قورش وناصره،ومن ثم هـو إله الإمبراطورية والعالم،ولم يعترض قورش المجامل على جواسيسه الذين كانوا ينقلون له أخبار بابل ومختلف الشعوب أولاً بأول بوفاء جلى.

أما دانيال النبى فقد تكفل بمهمة أخرى، فقام يرد تحية قورش بأحسن منها، فأدخل إلى اليهودية عقيدة جديدة لم تكن فيها أبداً من قبل،أخذها عن ديانة كورش(الزرادشتية) ليكون هذا المزج الدينى كفيلاً بتحقيق الأهداف المرجوة فقد ظل اليهود طوال عصورهم يعتقدون أن الموتى جميعاً يرحلون إلى العالم التحت أرضى،صالحهم وطالحهم، ذلك العالم الذى أسمته التوراة (الهاوية) و(شيول) وأكدت التوراة هذا المعنى،فهى تقول: «من جهة أمور بنى البشر،إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم.. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل»

(جامعة٣-١٨:١٩)

وكان أعظم عقاب ربانى يلحق بإنسان، هو أن يموت،حتى أن الله ذاته كثيرا ما كان يلجأ إلى هذا السلاح السريع المفعول لإنزال عقابه على العصاة، فيميتهم ليذهبوا إلى عالم تحت الأرض (الهاوية)، أما الإنسان المخلص ليهوه، فكان يهوه يزيد فى سنى عمره وفى حياته الدنيوية الأرضية.

فالتوراة تحكي:«وكان عير بكر يهوذا شريراً فى عينى الرب، فأماته الرب» (تكوين٣٨-٧). وهذا«أونان.. أفسد على الأرض.. فقبح فى عينى الرب ما فعله، فأماته أيضا» (تكوين٣٨-٩،١٠).وذاك الملك التقى الورع (حزقيا) يخبر النبى أشعيا بقرب موعد موته، ويرجوه أن يتوسط له لدى الرب يهوه، وأن يذكر(يهوه)بأفضاله عليه، فينقل أشعيا الرسالة ليهوه،ويتلقى الرد«اذهب وقل لحزقيا هكذا يقول الرب إله داود أبيك قد سمعت صلاتك،قد رأيت دموعك وهاأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة» (أشعيا٣٨-٦).

لذلك فإن «مخافة الرب تزيد الأيام، أما سنو الأشرار فتقصر» (أمثال١٠-٢٧)، لأن شيول تساوى بين الجميع، «هذا يموت فى معظم وفرة وقد عمته الدعة والطمأنينة وذاك يموت فى مرارة ونفسه لم تذق طيبا،وكلاهما يضطجعان فى التراب، فيكسوهما الدود، فمن الذى يبين طريقه، ومن يكافئه على ما صنع؟» (أيوب٢١-٣١).

لذلك كانت التوراة تؤكد أن الموتى «يضطجعون معاً لا يقومون، قد خمدوا كفتيلة انطفأوا» (أشعيا٤٣-١٧) «يناموا نوماً أبدياً ولا يستيقظوا» (أرميا٥١-٣٩). بل يبدو لنا فى التوراة أن العالم التحت أرضى خارج عن سلطان (يهوه) وسيطرته،فهذا يرجو ربه ألا يميته قائلاً: «عد يارب، نج نفسى، خلصنى من أجل

رحمتك، لأنه ليس فى الموت ذكرك، فى الهاوية من يحمدك؟.. هل يحدث فى القبر برحمتك؟ أو بحقك فى الهلاك؟ هل تعرف فى الظلمة عجائبك؟ وبرُك فى أرض النسيان؟» (مزامير: ٦).

حتى الأنبياء ذاتهم، عندما كانوا يتسببون فى إشعال غضب (يهوه) لا يجد لهم دواء سوى القتل، وهو ما نراه فى موت النبى موسى وأخيه هارون «وكلم الرب موسى فى نفس ذلك اليوم قائلا: اصعد إلى جبل عباريم، هذا.. ومت فى الجبل الذى تصعد إليه.. كما مات هارون أخوك.. لأنكما خنتمانى» (تثنية٣٢-٤٨: ٥١)

بل إن كبار الأنبياء كانوا يعلمون مصيرهم بعد الموت،وأنه هاوية تحت الأرض، فها هو يعقوب ينوح حزيناً على موت ولده يوسف، بعد أن خدعه أبناؤه وقالوا له: لقد أكله الذئب، فيقول: «إنى أنزل إلى ابنى نائحا فى الهاوية» (تكوين٣٧-٣٥).

ولكن هل كان دانيال يعرف أن (كورش) سيرضى بهذا المصير ولديه فى الديانة الزرادشتية نعيم مقيم بعد الموت فى مكان سماوى يدعى (باراديس) أو (الفردوس)؟ هنا كانت مهمة دانيال الذكى، فقام يحول شيول إلى عالم خالد، من أجل عيون قورش، ذلك الذى أصبح مسيحا للرب ويستحق مصيرا أفضل،وبالطبع قبل قورش الهدية ممتنا شاكرا،فظهر فى التوراة،سيرا على منطق الديانة الزرادشتية ولأول مرة،حديث حول قيامة الأموات:

وكثير من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية،وهؤلاء إلى العار إلى الازدراء الأبدى، استيقظوا وترنموا يا سكان التراب، هلم يا شعبى ادخل مخادعك.

(أشعيا٢٦-١٩)

وأضع روحى فيكم فتحيون، وأضع فى أرضكم فتعلمون أننى أنا الرب، تكلمت وفعلت.

(حزقيال٣٧-١:٤)

ومع ذلك،فقد كان عامة الشعب يعلمون أن ذلك ليس فى أصل دينهم وأن المسألة لعبة سياسة، فعاملوا هذه الأفكار الجديدة بحسبانها غشاً وتدليساً ودسا على يهوه، لذلك ظلت مثل هذه الأفكار موضع تحفظ من غالبية اليهود، وكانت محل رفض واستنكار من المتزمتين التقليديين، حتى مجيئ المسيح، الذى كان تأكيده على فكرة البعث والحساب، من أهم حيثيات الحكم عليه بالكفران بدين يهوه، ومن ثم استحقاقه حكم الإعدام صلباً.

سفر التكوين التوراتى:

لنتذكر الآن أن المدارس البحثية فى التوراة تكاد تجمع علـى أن سفر التكوين أول أسفار الكتاب المقدس، يُعد من بين أحدث الأسـفار وليس أقدمها، وأنه دوّن حوالى القرن الثالث قبل الميـلاد، أو قبلـه بقليل، أى بعد العودة من الأسر فى بلاد الرافدين.

وأول ما تطالعنا به التوراة، فى أول أسفارها (التكوين)، وفـى أول صفحات هذا السفر وفى الإصحاحات الثلاث الأولـى، تطلـع بقولها:

- فى البدء خلق الله السموات والأرض.
- وكانت الأرض خربة وخالية.
- وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه
- وقال الله: ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسـن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً، والظلمـة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

♦ وقال الله: ليكن جلد فى وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التى تحت الجلد، والمياه التى فوق الجلد، وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح، يوماً ثانياً

♦ وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة.. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن.

♦ وقال الله: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً وشجرا ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه بذره فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه, ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح يوما ثالثاً.

♦ وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً فى جلد السماء، لتنير الأرض، وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النورالأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله فى جلد السماء، لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح، يوماً رابعاً.

◆ وقال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض، على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة، التى فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذى جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن،وباركها الله قائلاً: أثمري وأكثري واملأى المياه فى البحار، وليكثر الطير على الأرض، وكان مساء،وكان صباح يوماً خامساً.

◆ وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها.. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن،وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى الأرض، وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض..(بينما بداية الأصحاح الخامس تقول:يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم يوم خلقه) ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساء، وكان صباح، يوماً سادساً.

♦ فأكملت السموات والأرض و كل جندها،وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً.

♦ هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد،لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل فى الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض،وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية.

♦ وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر.

♦ وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل، وحجر الجزع،واسم النهر الثانى جيحون، وهو المحيط

بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى آشور، والنهر الرابع الفرات.

♦ وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن، ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت، وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له مُعيناً نظيره،وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها،وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجد مُعيناً نظيره .

♦ فأوقع الرب الإله سباتاً علي آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلي آدم ، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تدعي امرأة لأنها من امرء أخذت،لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكان كلاهما عريانين، آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

♦ وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية، التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية:من ثمر شجر الجنة نأكل ، وأما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه،لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله، عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون،وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر.

♦ وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة، عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله، في وسط شجر الجنة ، فنادي الرب الإله آدم وقال له: أين أنت ؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاختبأت فقال: من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت ؟ فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت ؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت، فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذاملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، علي بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك،

وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً، وإلي رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك وقال لأدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك،بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك،وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلي الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلي تراب تعود.

◆ ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي ،وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلدٍ وألبسهما.

◆ وقال الرب الإله، هو ذا الإنسان، قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلي الأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

من البيّن في هذه القصة التوراتية بشأن التكوين، أن هناك روايتين أصليتين تم دمجهما في قصة واحدة، وتشير إلي ذلك دلائل شاهدة:

مرة يقوم بفعل من أفعال الخلق من سمي (الله)، وهو في الأصل العبري (يهوه) كما في النص (في البدء خلق الله) و(قال الله)، ومرة يقوم بأفعال أخري للخلق زعيم المجمع الإلهي (إلوهيم)،

الذي ميزناه باسم (الرب الإله)، وصيغة حديث الرب الإله تشير بوضوح سافر إلي تشاوره المستمر مع أعضاء هذا المجمع (إلوهيم)، كاستشارته لأعضائه (نعمل الإنسان علي صورتنا كشبهنا)، أو كما في إعلامه المجموعة الإلهية بالخبر المفزع الذي أثار القلق الشديد لدي الرب الإله(هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر) وإن هذا الكائن الجديد ربما تطاول وأخذ من شجرة الحياة الخالدة، فيصبح خالداً مثلهم.

في موضع يقوم الإله الخالق بصنع السماء والأرض دفعة واحدة (في البدء خلق الله السماوات والأرض،وكانت الأرض خربة وخالية)، بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتين أصلاً كيمّ ماء أزلي، يفتقه الله عن بعضه إلي سماء وأرض.

في مشهد يقوم من لقب بـ(الله) أويهوه بإنبات النبات في الأرض، ويضع فيها حيوانها ودباباتها، بينما في مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم،ثم فجأة يضعه في مكان أرضي يسمي الجنة ليزرعها ويفلحها ويعملها ويحفظها، وفيه نباتات مختلفة، أهمها شجرتين : شجرة المعرفة وشجرة الحياة، وواضح أن هذا المكان كان موطناً تعيش فيه مجموعة الآلهة (إلوهيم) مع كبيرها (الرب الإله) فقط، بدليل خشية الرب الإله أن يتجرأ مخلوقه (آدم) ويأكل من شجرة الخلد الخاصة بالآلهة الخالدة

وحدها، خاصة بعدما تجرأ علي الأكل من شجرة المعرفة، مما جعله يصبح كالآلهة يميز بين الخير والشر.

هذا مع تناقض واضح يشير إلي هذا الانفصال الأكيد لروايتين مختلفتين من الأصل، تم مزجهما معاً، فنفهم في أحد مواضع قصة التكوين أن آدم عندما وضع في مقر إلهه الخالد، لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم من موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء (حتي تعود إلي الأرض، التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلي تراب تعود).

ثم تضارب آخر،فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة، فتقول الرواية: (إن الله قال: ليكن نور فخلق النهار والليل)، بينما الرواية التي تتحدث عن السماء والأرض كموجود واحد أصلى في هيئة غمر أزلي مظلم، ترجئ إيصال الإنارة إلي ما بعد فتق هذا المحيط إلي سماء وأرض.

ثم يظهر تضارب آخر بين القصتين، فى كنه عملية الخلق ذاتها فالله يتخذ كل مرة قراراً للخلق بالكلمة فقط، لكنه في كل مرة كان يتبع كلمته الخالقة بعمل يدوي من صنع يديه لإيجاد الشيء المراد خلقه : (وقال الله ليكن جلد .. فعمل الله الجلد، وقال الله لتكن أنوار .. فعمل الله النورين العظيميين .. الخ).

أما أبرز الشواهد علي مزج روايتين مختلفتين في التكوين التوراتي فهو الكيفية التي تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد، يجمع في ذاته الواحدة الذكورة مع الأنوثة «ذكراً وأنثي خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم» ثم يفصل عنه العنصر الأنثوي من خلال المرأة الضلع أو الضلع المرأة، بينما نجد في موضع آخر إشارة مختلفة تماماً، تقول «علي صورة الله خلقه ذكراً وأنثي خلقهم»،فهنا شخصان منفصلان متمايزان عن بعضهما تماماً من الأصل.

ولا مجال هنا لتفسير ذلك، سوي ما أسلفناه حول طبيعة التأليه اليهودي، الذي اتخذ طورين أساسيين، أو ما أسميناهما: طور التأليه الإلوهيمي في العصر الإبراهيمي وربما قبل إبراهيم بزمان طويل، واعتمد ثالوثاً يرأسه الرب الإله، وطور التأليه اليهوي في العصر الموسوي وما تلاه، واعتمد مجموعة بعول أو ثيران تتسم بالصفات البركانية، مع التأثيرات التي لاشك دخلت هذا السفر إبان وجود اليهود أسري في بلاد الرافدين، حيث كان الجو الديني يعبق بسفري التكوين السومري والبابلي وهو ما نجده واضحاً في المقارنة التالية:

١- يقول: التكوين السومري: في البدء لم يكن في الوجود سوي محيط بدئي مظلم، وهذا الغمر كان هو (نمو)، وقام الإله الهواء الريح (إنليل) بالفصل في هذه المياه بين سماء وأرض.

ويقول التكوين البابلي: في البدء كان غمر مظلم أنثى هي (تيامت)، شقها (مردوخ) كما تشق الصدفة إلي قسمين: سماء وأرض.

ويقول التكوين التوراتي: في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية،وعلي وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء.

٢- يقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) أظهر اليابسة علي الماء بأنه علي سطح الماء ضفر حصيراً، وصنع شيئاً من التراب، وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه، وهو الأرض.

ويقول التكوين التوراتي: لتجتمع المياه تحت السماء إلي مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضا.

٣- ويقول التكوين السومري: إن إنليل شاء إزالة الظلمة من علي الغمر، (فأظهر للعيان) بالنورين العظيمين، الشمس والقمر.

ويقول التكوين البابلي:إن (مردوخ) سلط القمر علي الليل، وجعله زينة في الليل، به يعرف الناس مواعيد الأيام،كذلك جعل الشمس للنهار.

ويقول التكوين التوراتى: وقال الله ليكن نور، فكان نـور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النـــور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وقال الله لتكن أنوار فــى جلـد السـماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. لتنـير على الأرض.. فعمل الله النورين العظيمين، النـــور الأكـبر لحكـم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل.

٤- يقول التكوين السومرى: قامت إلهة أنثى بعجن طين، خلقت منه الإنسان الأول، بعد أن عجنت بسائل الخصب (أبسو وإنكى) المنــى المقدس، وأن الإنكى أو الإنسى عصى أوامر إلهية،فـــأكل ثمـاراً محرمة، أصيب بسببها بمرض فى واحد من ضلوعه، حتى أشـوف على الهلاك، «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»ولم ينقـذه إلا استخراج ضلعه المريضة، لتصنع منها زوجة له، هى (نن تـى) أو (ننتو) سيدة الضلع، وتعنى أيضاً سيدة الحيـاة أو التــى تحيــى أو الوالدة، فالإنسان بذلك خلق ذكراً وأنثى معاً فى ذات واحـــدة، ثــم فصلا بعد ذلك.

يقول التكوين التوراتى: «يوم خلق الله الإنسان، على شـــبه الله عمله ذكراً وأنثى خلقه، وباركه، ودعا اسمه آدم يوم خلــق.. وقـال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده.. فأوقع الرب الإله ســباتاً على آدم فنام فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة.. ودعا آدم اسم امرأته حــواء،

لأنها أم كل حى. » ثم يقول إن حواء الحية (وهى من حوى، وحياة، وحيا أى فرج)، وقد خدعت زوجها (إليه اشتياقها) فأكل معها من ثمرة المعرفة المحرمة، وأول ما عرفاه ــ وهنا الغريب ــ أنهما عريانان؟ وهو الفعل الجنسى إذن! وهو ما ذهبنا إليه عند معالجتنا سفر التكوين السومرى.

٥- يقول التكوين البابلى: إن الدم هو سر النفس أو الحياة، لذلك كان لابد كى يوجد الإنسان حياً، أن تخلط النفس الحياة مع الطين، وكان الدم عند الأقدمين هو سر الحياة، عندما كانوا يرون المرأة المتميزة بالقدرة على الولادة تتميز بدورها بالدم الشهرى، وأن هذا الدم ينقطع عند الحمل فتصوروا أنه يظل فى الداخل ليعطى المولود حياته،وحتى يسلب التكوين البابلى المرأة هذا الحق البيولوجى، وينسبه للرجل قاموا بذبح (كنجو) ليخلطوا دمه بالطين، ويخلقوا الإنسان.

وفى التشريع التحريمى تقول التوراة: لكن احترز أن لا تأكل اللحم، لأن الدم هو النفس، فلا تأكل النفس مع الدم (تثنية-٢١ ــ ٢٣)

٦- فى الختم (المفترض أنه سومرى حسب تصنيف الآثاريين)رأينا الحية توعز للأنثى الأولى بأكل ثمار التمر (ولا تنسى الثمر المحرم الذى أكله إنكى) فتدعو زوجها لأكله، مما يؤدى إلى انتهاء

الخلود الفردى وبداية خلود النوع بالتناسل، بخروج إنكى أو إنسى وزوجته (نن تى)، من أرض الخلود دلمون، وكان الخلود يتمثل فى نبتة لو أكلها الفانى خلد. وفى ملحمة جلجامش علمنا أن هذه النبتة لا تنمو إلا فى أرض الخلود (دلمون) مقر الآلهة الخالدة.

ويقول التكوين التوراتى: وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله.. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.. وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً:من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. (ثم خلق له حواء كما شهدنا) وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله.. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.. وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا للأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (ولنلحظ أن شجرة الخلد لم تكن محرمة أصلاً، ولكن أكل آدم من شجرة المعرفة نبه الرب الإله إلى أنه غفل عن أمر شجرة الحياة،

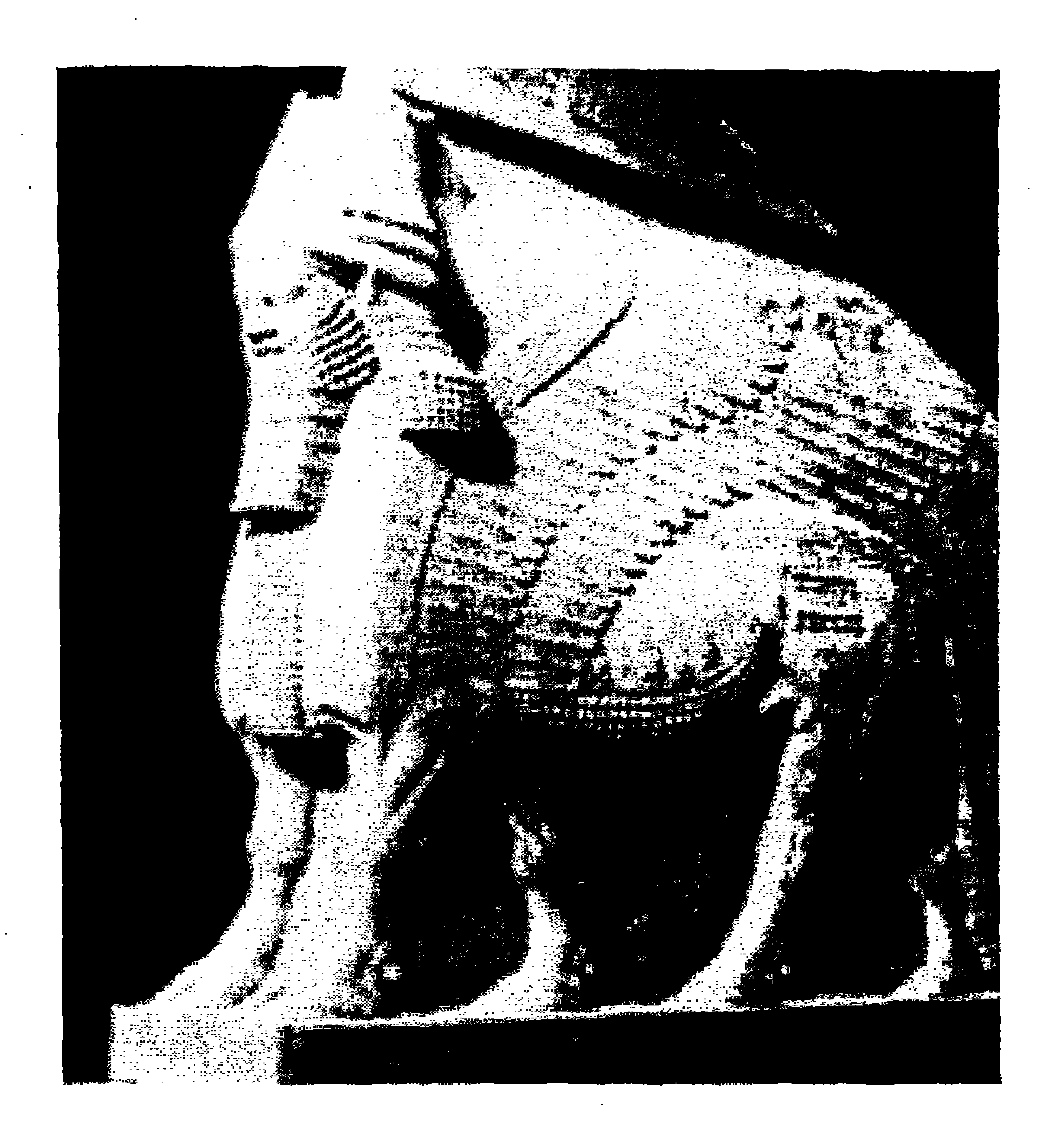
مما اضطره إلى طرد المخلوق البشرى من موطن هـــذه الشــجرة، حتى لا يخلد كالآلهة).

٧- والغرض من خلق الإنسان في التكويـــن الســـومرى والتكويـــن البابلى، هو أن يحمل الإنسان عناء عمل الآلهة،بأن يـــزرع الأرض ويعمل فيها ليحفظها.

وفى التكوين التوراتى أخذ الرب الإله آدم،ووضعه فـــى جنـــة عدن ليعملها ويحفظها.

٨- وفى التكوين البابلى:كان مفترضاً أن تتم عملية الخلـــق بالكلمـــة الخالقة للإله مردوخ، ومع ذلك كان الخلق يتم دائماً بالصنعة اليدوية.

وفى التكوين التوراتى: كان الإله ينطق الكلمة الخالقة (ويبـــدو أنه كان لا يحدث شيء بالمرة عند نطقها)، لذلك كان الإله يضطـــر دائماً إلى صناعة الشيء المراد خلقه بالعمل اليدوى.
وفى التكوين السومرى، وبعد عناء عملية الخلـــق، جلســـت الآلهـــة لتستريح وفى التكوين البابلى، استوى مردوخ على عرشه، أما فـــى التكوين التوراتى، عندما (فرغ الله فى اليوم السابع من عمله الـــذى عمل، استراح فى اليوم السابع).



أحد ثيران بابل المجنحة برأس أنسان وأجنحة نسر وقوائم وجسد ثور وفي مجمله يوحي بمشهد الأسد أو كما أسماه حزقيال (كروب او قراب) او كما أسمته الروايات الإسلامية (البراق).

المصادر العربية والمراجع (المترجمة)

الكتب الموسوعية

١-القرآن الكريم .

٢-الكتاب المقدس.

٣- موسوعة تاريخ العالم (وليم لانجر وآخرون) . أشرف علي لجنة المترجمين د. محمد مصطفي زيادة، مكتبة النهضة المصرية د.ت .

* * *

٤- **الأصفهاني** : الأغاني، بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ .

٥-**برستد (جيمس هنرى)** : انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

٦- **بكر (د. يعقوب السيد)**: هوامش مطولة وشروح وافية علي ترجمته لكتاب موسكاتي (الحضارات السامية القديمة) دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧.

٧- **بوتيرو(جان)** : الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠.

٨- **تشايلد (جوردن)** : التطور الاجتماعى، ترجمة لطفي فـهيم، مؤسسة كل العرب، القاهرة، ١٩٦٦.

٩- **التكريتي (سلمان)** : أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجـف العراقى، ١٩٧٢.

١٠- **حسن (د.حسن إبراهيم)**: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبـة النهضـة المصريـة، ط٧، القاهرة، ١٩٦٤.

١١- **حنفي (د. حسن)**: هوامشه علي ترجمته لكتاب اسـبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار الطليعة بيروت، ط٢، ١٩٨١ .

١٢- **دولابورت (ك)**: بلاد ما بـين النـهرين، حضـارة بـابل وآشور، ترجمة مارون الخورى، دار الروائـع الجديـدة، بيروت.

١٣- **ديورانت (ول)**: قصة الحضارة، ترجمة محمـد بـدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣، ١٩٦١.

١٤- **رشيد (د. فوزى)**: خلق الإنسان فى الملاحـم السـومرية والبابلية، آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨٧ .

١٥- **رشيد: (د. فوزي)**: الديانة، المعتقدات، (ضمن مجموعـة مجلدات تاريخ العراق بالاشتراك مع آخرين)، دار الحريـة للطباعة، بغداد، ١٩٨٥، ج١.

١٦- زايد: (د. عبدالحميد) : الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت .

١٧- الزمخشرى : الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلي البجاوى، ج٢ ، القاهرة ١٩٤٧.

١٨- ساندرس (ن.ك) : ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠.

١٩ـ السواح (فراس): مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٠- سوسة (د. أحمد): العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر،ط٢، دمشق، د.ت.

٢١- شلبى (د. أحمد): مقارنة الأديان، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، ط٥،١٩٧٨.

٢٢- الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفي البابى الحلبى، القاهرة ١٩٦١.

٢٣- صالح (د. عبد العزيز): الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٤- ظاظا (د. حسن): الساميون ولغاتهم، مطبعة المصرى، الإسكندرية، ١٩٧١ .

٢٥- **العقاد (عباس محمود)** : الله، كتـــاب الـــهلال، القـــاهرة، سبتمبر ١٩٤٢.

٢٦- **العلوجى (عبد الحميد)** : شخصية نبوخذ نصر الثــانى، دار الحرية للطباعة، بغداد،١٩٨٢.

٢٧- **على (د. فاضل عبد الواحد)** : عشـــتار ومأســاة تمــوز، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٣م.

٢٨- **علي (د. فؤاد حسنين)** (مترجم) لكتاب: الديانـــة العربيـــة القديمة، بالاشتراك مع مجموعة علماء في مجموعة أبحاث بعنوان: التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصريـــة، القاهرة، ١٩٥٨.

٢٩- **على (د.جواد)**: المفصل فى تاريخ العرب قبـــل الإســلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقى .

٣٠- **غود ولبية (موريس)** : ضمن كتاب: حول نمـــط الإنتـــاج الآسيوى، مع جان ســـوريه وآخريـــن، ترجمـــة جـــورج طرابيشى، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٢ .

٣٢- **فريحة (د. أنيس)** : دراسات فـــى التـــاريخ، دار النـــهار، بيروت، ١٩٨٠ .

٣٣- **فريحة (د. أنيس)** : ملاحم وأساطير من الأدب الســـامي، دار النهار، بيروت ط٢، ١٩٧٩.

٣٤- **القزوينى** : عجائب المخلوقات، جونتجن، ١٨٤٩ .

٣٥- **القمنى (سيد)** : إلهة الجنس أو الزهـــرة، آفـــاق عربيـــة، بغداد، العدد ٩، ١٩٨٢ .

٣٦-**القمنى (سيد)** : الأضاحى والقرابين: الجذور الاجتماعيـــة، فكر للدراسات والأبحاث، دار الفكـــر للطباعـــة والنشـــر، القاهرة، عدد ١١ .

٣٧- **القمنى (سيد)** : القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثـــالوث، الكرمل، نيقوسيا، عدد ٢٦.

٣٨- **القمنى (سيد)** : من الطوفان الســـومرى إلـــى الطوفـــان النوحى، آفاق عربية، بغداد، العدد ٩،١٩٨٣ .

٣٩- **كارلوفسكى (س. لامبرج)**: دلمون مدخـــل إلـــى الخلـــود، ترجمة كامل مصطفي اللحـــام، الثقافـــة العالميـــة، وزارة الإعلام الكويتية، مارس ١٩٨٣ .

٤٠- **كريمر (صموائيل نوح)** : الأساطير الســـومرية، ترجمـــة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧١.

٤١- **كريمر (صموئيل نوح)** : السومريون، تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د.فيصل الوائلى، وكالة المطبوعـــات الكويت، د.ت.

٤٢- **كريمر (صموئيل نوح)**: من ألواح سومر، ترجمـــة طـــه باقر، مؤسسة الخانجى، القاهرة، ١٩٧١ .

٤٣- **لسنر** (د. إيفار) : الماضى الحى، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١ .

٤٤- **لويد** (سيتون) : آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامى سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠.

٤٥- **ميخائيل** (د. نجيب) : مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم، ج٦،دار المعارف القاهرة، ١٩٦١.

٤٦- **هومل** (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، بالاشتراك مع مجموعة من العلماء فى مجموعة أبحاث بعنوان: التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

المصادر الأجنبية

---

(1) **Chesneaux (jean):** In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M) Sur Le "Mode de production a siatique Editions Sociales, Paris, 1969.

(2) **Frankfort (Henri):** La Royautu et les dieax, paiot, paris, 1951, the Birth of Civilisation in the Near Eeast .

(3) **Frankfort (Henri):** Wiliams and Norgate limted, Great Britain, 1951.

(4) **Lods (A):** Israel from Its beginings to the middle, of the Eight century, london, 1973.

(5) **Smith:** God and Man in early Israel.

(6) **Stade (B):** Lehrbuch der
hebraischen grammtik, Libzig, 1979.

(7) **Wallhausen (J):** Die biblischen
Atertu mer.

(8) History of the Worls, the Outline of
History, Vol4 .

فهرس محتويات الكتاب

من أعمال المؤلف

١- **الموجز الفلسفي**: دار السياسة الكويت، د.ت، نفذ.

٢- **مشكلات فلسفية**: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية.

٣- **أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة**: الطبعة الأولى، دار فكر، القاهرة، ١٩٨٨، والطبعة الثانية، المركز المصرى لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩.

٤- **الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية**: طبعتان، دارسينا، دار مدبولى الصغير.

٥- **النبي إبراهيم والتاريخ المجهول**: طبعتان، دار سينا، دار مدبولى الصغير، القاهرة.

٦- **الأسطورة والتراث**: طبعتان، بدار سينا بالقاهرة والثانية بتاريخ ١٩٩٣، والطبعة الثالثة المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩.

٧- **حروب دولة الرسول**: جزآن: الأول طبعة دار سينا بالقاهرة، والثانى طبعة مدبولي الصغير، جمعا في كتاب واحد لدى مدبولى الصغير ١٩٩٦.

٨- **قصة الخلق، منابع سفر التكوين**: الطبعة الأولى، دار عيبال، قبرص، والطبعة الثانية، المركز المصرى لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩.

٩- **إسرائيل:التوراة،التاريخ،التضليل**: طبعتان، الأولي، عيبال قبرص، والثانية دار قباء القاهرة ١٩٩٧.

١٠- **رب الزمان:** طبعة أولى لدى مدبولي الصغير، وطبعة ثانية لـدى دار قباء بالقاهرة ١٩٩٧.

١١- **السؤال الآخر:** الكتاب الذهبي، روز اليوسف ١٩٩٧.

١٢- **النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة:** المركز المصري لبحـــوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩.

١٣- **الفاشيون والوطن:** المركز المصري لبحوث الحضارة، القـاهرة، ١٩٩٩.

متون سفر التكوين
قصة الخلق

يبحث هذا الكتاب في الأصول البعيدة والجذور الأولى لفكرة التكوين، وكيف تصور الإنسان نشأة الكون والكائنات، وارتباط تلك التصورات بشكل المجتمع والاقتصاد والمنظومة السياسية. ثم كيف تطورت تلك الأفكار الابتدائية البسيطة الأولى لتصوغ قصة للخلق بواسطة الآلهة تتوافق مع تطور الإنسان المجتمعي، حتى أفرغت محتواها في سفر التكوين التوراتي



المركز المصرى لبحوث الحضارة
THE EGYPTIAN CENTER
FOR CIVILIZATION RESEARSHES